حسين مردان

صراحة

من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (1629) السنة السابعة

الخميس (15) تشرين الاول 2009

حسين مردان . . ذاكرة جيل مضى

2

انا دكتاتور الحركة الادبية

8

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

حسين مردان . . ذاكرة جيل مضى

باسم عبد الحميد حمودي

غادرنا الشاعر حسين مردان في الرابع من تشرين الاول ١٩٧٢ وقد نشرت هذه الدراسة في عدد مجلة (الاجيال) الفصلي الرابع لعام ١٩٧٣ جامعة بين سيرة حياة الشاعر وادبه وطبعت في كتيب في العام نفسه.

الصبي

لم يفصح حسين مردان كثيراً عن فترة العقدين الاولين من حياته الا ان المعروف انه ولد عام ١٩٢٧ وقضى فترة صباه ومراهقته في بعقوبة نتيجة انتقال والده اليها من الحلة،مسقط رأس الشاعر.

عاش حسين مع والده عريف الشرطة علي مردان ووالدته مع شقيقاته عيشة ضنكة وضيق مادي، ونشأ متمرداً على واقعه محاولاً الانتفاض عليه.

وقد كانت مؤشرات نموه الفكري الاولى تتمثل في ثلاثة عوامل رئيسة، اولها صفاء جو بعقوبة ورعاية ملاكيها لبساتينهم وعمق الهوة الطبقية بينه وبينهم، فصفت مشاعره وتوترت بفعل ذلك الجو، وثانيها اتجاهه منذ صباه للقراءة الجادة المستمرة وثالثاً قسوة الظروف المعيشية التي عاشها في صباه وفتوته.

ترك حسين مردان المدرسة دون ان يكمل الثانوية لانكبابه على المطالعة وعدم رغبته في الدروس الاكاديمية، وقضى فترة مراهقة صعبة ملأها بدواوين الشعر والقصص والتجوال في ريف بعقوبة القريب ومقاهيها الفقيرة.

ولسنا نعلم على وجه التأكيد متى بدأ حسين مردان يكتب الشعر ولكننا نعلم ان جماعة من اسرة «الوقت الضائع»، قد اتجهت في ١٩٤٦ الى بعقوبة بحثاً عن شاعرنا الذي عرف ببغداد دون ان يصل اليها الا قليلاً، وان هذه الجماعة قد تألفت من القاص الرسام نزار سليم والقاص عدنان رؤوف والقاص عبد الملك نوري.

وقد كان هدف هؤلاء قضاء وقت ممتع في يوم عطلة والتعرف على الشاعر، وقد كان حسين كريما في لقائه لهم فقد جلب لهم زجاجة من الخمر وجلسوا جميعاً في احد بساتين بعقوبة ليتحدثوا عن الشعر والرسم والقصة وليأكلوا ما حان وقت الساعة.

وفغر مردان فاه متعجباً من ثقافتهم وسعة معلوماتهم واتصالاتهم بالرسامين البولنديين وحديثهم عن جواد سليم وايقن عندما ودعهم ان مكانه في بغداد هو الذي سيجعل له شأنا كبيراً وان انزواءه ببعقوبة غير مجد اطلاقاً.

الى بغداد

ولم تمض الا أشهر حتى كان حسين قد وصل الى مقهى العراق وهو واحد من مراكز جماعة الوقت الضائع، لا شيء يحمله معه الا دراهم قليلة وكيساً فيه ملابسه الزائدة البسيطة. ورحب به هناك بقية الجماعة.. بلند الحيدري وجميل حمودي وضيفوه في الغرفة البائسة التي تقع فوق المقهى حيث سكن فيها مجاناً الى ان انتهت لقاءات جماعة الوقت الضائع بفعل خوف اعضائها من السلطة التي بدأت ترقبهم بعين قلقة رغم عدم تشكيل تمردهم على الحياة الاعتيادية هذا أي ضرر مباشر لها.

ولم تكن هذه الزيارة لبغداد اولى زيارات حسين فقد زارها وهو جندي يؤدي الخدمة العسكرية بسيارة من سيارات الجيش وزارها ليذهب الى السينما ويبيت في حديقة غازي التي رحبت به مراراً بعد ذلك بعد ان وصل في عربة تجرها الخيل، متعباً لساعات طويلة.

قمة الجبل

وكان حسين قد بلغ العشرين من عمره عندما استقر ببغداد وكان ذلك عام ١٩٤٧، ايام جوع بغداد وضيق اهلها بسياسة العسف التي مارستها زمرة نوري السعيد –صالح جبر لامرار معاهدة بورتسموث.

ويتحدث حسين عن اسباب مجيئه لبغداد باسلوبه المكثف الاخاذ غافلاً جملة من الحقائق التي لم ير ضرورة لذكرها فيقول «فجأة قررت هجر المدرسة والمجيء الى بغداد.. كنت حينذاك في العشرين من عمري، كتلة نار وسيوف.. وتلقفني شارع الرشيد.. الفساتين الملونة والزجاج.. وقلت لنفسي.. من هذا الرصيف الرمادي ستبدأ مسيرتي الصعبة نحو قمة الجبل.. وكانت الدهشة تشدني من كل جانب حتى وصلت مقهى الزهاوي حيث يجلس محمد هادي الدفتري وخضر الطائي وعبد الرحمن البناء».

والواقع ان وجوده الى جانب هؤلاء العموديين المختلفين عنه تفكيراً واسلوباً شعرياً والبعيدين عن جماعته الذين يرتادون مقهى العراق كان فترة موقوتة، فقد كانوا يعاملونه كظاهرة غريبة طريفة ليس الا.

وعلى ذلك فهو يقول «كان حماسي الجهنمي وولعي الشديد بالمناقشة والجدل، وافكاري المتطرفة في الشعر والادب قد وضعتني تدريجياً في المكان اللائق بين اصدقائي الجدد..» لذا فهو لا يمكث مع هؤلاء طويلاً وانما ينتقل مع رشيد ياسين وبلند الحيدري وزهير احمد القيسي الى مقهى البلدية بتأييد واسع يومي من ادباء وشعراء الكليات انذاك ومن هؤلاء بدر شاكر السياب وعبد الرزاق عبد الواحد واكرم الوتري وبرعاية دائمة لروح التجديد في الشعر الذي يتبناه هؤلاء ولا يلقون سوى تشجيع متردد من جانب العموديين الاكثر يساراً المتمثلين برواد مقهى حسن العجمي امثال عبد القادر البراك- الصحفي وجلال الحنفي –الباحث- وكمال الجبوري- الشاعر.. ومحمد مهدي الجواهري الذي يلتقى مجلسياً بجماعته ولكنه غير مستعد انذاك لقبول قصيدة شعرية حرة.

وكان بدر السياب وعبد الوهاب البياتي وبلند الحيدري ونازك الملائكة قد اصدروا في عام ١٩٤٨ دواوينهم الاولى «ازهار ذابلة» و«ملائكة وشياطين» و«خفقة الطين» و«شظايا ورماد» وقد حملت روح التجديد وان حافظت على عمودية الكثير من القصائد.

قصائد عارية

وبدأ حسين مردان يشتغل بالصحافة انذاك، مصححاً ومخبراً ومحرراً ادبياً واستطاع في عام ١٩٤٩ ان يصدر ديوانه الاول «قصائد عارية» مخترقاً تيار التجديد الشكلي الى تيار اشد ضراوة واكثر سخونة واندفاعاً واستفزازاً للعواطف متأثراً ببودلير والياس ابي شبكة محاولاً تطويق الجميع بالعاصفة التي احدثها صدور الديوان الذي حوى حتى قصائد حب شاذة لا تأتلف والجو العام، سياسياً ومناقبياً.

وقد اكد حسين مردان بعد ذلك بسنوات ان هدف الديوان لم يكن التأكيد على بودليريته بقدر ما كان عملية تقدير لجسد الانسان وحواسه كمعنى فلسفي مبرر للديوان، وان الهدف الحقيقي لم يكن كذلك تماماً انما هو عملية سحب البساط من تحت اقدام المجددين والمحافظين.

وقد نجح مردان في اثارة الصحافة المحافظة وقدمته الحكومة الى المحاكمة بتهمة محاولة افساد افكار الشباب الا ان المحكمة برأته من هذه التهمة واخلت سبيله بعد استشارة ادبية لعدد من الادباء والشعراء.

ويبدو ان الشاعر لم يكن ليحصل على لقمة يومه بسهولة بسبب من اضطهاد السلطة انذاك للصحافة الحرة وتعذر استمرار صحيفة يومية لا تعتمد على اعلانات الحكومة، فتبطل وتشرد مراراً.

وكما كان حسين مردان متشرداً يعيش يومه بصمونة سوداء وكاس شربت، كان عبد القادر البراك صحفياً متشرداً يبحث عن صحيفة نظيفة ليستطيع الكتابة فيها والعيش من عمله فيها لذا

بدأ حسين مردان يشتغل بالصحافة انذاك، مصححاً ومخبراً ومحرراً ادبياً واستطاع في عام ١٩٤٩ ان يصدر ديوانه الاول «قصائد عارية» مخترقاً تيار التجديد الشكلي الى تيار اشد ضراوة واكثر سخونة واندفاعاً واستفزازاً للعواطف متأثراً ببودلير والياس ابي شبكة محاولاً تطويق الجميع بالعاصفة التي احدثها صدور الديوان الذي حوى حتى قصائد حب شاذة لا تأتلف والجو العام، سياسياً ومناقبياً.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

فان الارتباط الحياتي بينهما واضح تماماً قبل ان تتوزع بينهما سبل الحياة فيما بعد.

الجواهري

وكان الجواهري على عموديته شاعراً ثورياً يلف حوله الشباب عبر تاريخ حياته الوطني المعارض وقصائده المحركة للجماهير، وقد حاول ان يشمل مردانا برعايته ومساعدته ايام المحاكمة لكن الشاعر يرفض ذلك ويقول:

جاءني القاص عبد الرزاق الشيخ علي واخبرني ان الجواهري يريد رؤيتي ويدعوني الى زيارته... ولكن رفضت الذهاب وقلت له: ليأت الجواهري الي في المقهى.. ويبدو ان ابا فرات كان يفهم مدى الغرور الذي يحمله الشعراء الشباب!! فاستعان بديمقراطيته وحضر الى مقهى الرشيد حيث كان مقري الدائم انذاك.. وقد نهضنا لاستقباله بما يليق به باعتباره الوريث الشرعي لكل ابداعات التراث الشعري منذ العصر الجاهلي الى يومنا هذا.

وبعد حديث قصير اظهر الجواهري اسفه لمصادرة ديواني ومحاكمتي وعرض على مساعدته، واظن انه تحدث مع الحاكم الذي احيلت اوراق الدعوى اليه.

ويقول مردان بعد ذلك :«وعلى الرغم من عدم ايماني بعبقرية الجواهري بصورة مطلقة فقد ظل يعاملني بمودة خاصة، وحتى عندما هاجمته بسلسلة من المقالات النقدية حول قصيدته «اللاجئة في العيد» لم اسمع منه كلمة واحدة تنم عن الكره».

وهنا يجب ان نحلل ثلاث مسائل، موقف مردان من الجواهري وموقف الجواهري من مردان، وموقف السلطة من ديوان مردان.

اما المسالة الاولى فان موقف مردان المتحفظ من الجواهري، قد اتى من نرجسية مردان وشبابه وغروره كما يعترف هو، فهو يخشى ان ينضوي تحت راية الجواهري ويحظى برعايته لان الجواهري اساسا بحاجة –انذاك– للرعاية ثم ان يختلف عنه شكلاً كشاعر عمودي بارز، ثم ان مردان اكثر التصاقاً بالتجديد وابعد تماماً عن المحافظة.

اما الجواهري فقد كان طبيعياً جداً في ممارسة دوره كرائد للشعر العربي يشعر بان عليه ان يرعى البراعم الناشئة حتى وان اختلف معها، بالاضافة الى كونه رجلاً معارضاً يبحث عن الحرية بمفهومها العام وما حرية الفكر –وان شذ– الا جزء من جو الحرية العامة الذي ينشده الجواهري، ثم انه يحاول داخلياً– ان يوجد لنفسه صدى طيباً لدى شعراء الشباب يمكنه من المحافظة على موقعه امامهم ولا يجعلهم اقلاماً تهاجم شعره بعنف كما فعل حسين مردان بعد ذلك.

اما موقف السلطة فمسألة تتجاوز رغبة الجواهري في المساعدة وغرور مردان، لقد برأت السلطة مردان من تهمة أفساد افكار الشباب لانها لم تر في مردان خطراً مباشراً على اجهزتها ولا على سياستها الرجعية العميلة للاستعمار.

المتشرد الدائم

وما ان انتهت ازمة الديوان حتى مارس حسين والشباب الآخرون ابسط حقوقهم وارادتهم في التغيير فغيروا مكان جلوسهم من مقهى الرشيد –البرلمان– الى مقهى الدفاع– المقابل انذاك لوزارة الدفاع– ليلتحق بهم عدد من المثقفين والكتاب منهم الكاتب المسرحي صفاء مصطفى وكمال القيسي والممثل يحيى فائق والقاص غائب طعمة فرمان والصحفي مصطفى الفكيكي والكاتب عبد المجيد الونداوي.

كانوا يلتقون في صحيفة الاهالي صباحاً، وعصراً في مقهى الدفاع، وليلاً في مشرب بلقيس– ومن هذه الاجواء بالذات ولدت الشخصيات الحقيقية لرواية خمسة اصوات– لغائب طعمة فرمان.

وكان جميع هؤلاء يقاسم مردان ما في جيبه ويعيره كتاباً ويحاول ان يوجد له مسكناً يبعده عن تشرده ويشاركه في علبة الدخان ويدعوه اذا كان في الامر الى وليمة طعام او شراب.

خمسة اصوات

ان هذه الرواية التي كتبها غائب طعمة فرمان تتعرض لتفاصيل دقيقة من حياة مردان في فترة النصف الاول من الخمسينيات.

وقد كان سعيد –فرمان– وعبد المجيد الونداوي يشتغلان في جريدة –الاهالي– ومردان –شريف– عاطل يسكن غرفة في سطح مقر الجريدة.. وقد يشتغل احياناً.

واحداث الرواية تتناول هذه الفترة حتى غلق الجريدة عام ١٩٥٥ كجزء من سياسة سعيدية استعمارية عامة للتمهيد لاعلان الحلف التركي الباكستاني العراقي الممهد لحلف بغداد.

كان سعيد وعبد الخالق وشريف يلتقون مع بقية الخمسة، حميد وابراهيم، في مشرب بلقيس، يتحدثون ويشربون محاولين تغيير نوعية الحياة الجياشة الداخل، الرتيبة الخارج خلال كؤوسهم وثرثراتهم البرجوازية.

وكان حسين مردان –شريف– متميزاً عن سائر الخمسة بسوء الحال المادية وكبر الادعاء، ومناقشة من هذا النوع ليست غريبة دائماً على هذه الصفوة من رواد مقهى الدفاع ومشرب بلقيس:قال عبد الخالق عن سعيد: هو مشهور بما فيه الكفاية –الذي اكل المزة شخص من المعجبين بشعر شريف، جاء وسقط على صحون المزة محركاً فمه بكلمة اعجاب وسط عشرات الحبات من الباقلاء.

قال شريف: شخص تافه يتمسح باذيالي، يريد ان اعلمه الشعر، ضحك ابراهيم منتشياً وقال عبد الخالق في تذمر:

–يجب ان تعلم نفسك اولاً.

قال شريف: لست بحاجة الى تعليم.

فثار عبد الخالق وقال: هذا من فساد الدماغ، اكبر الفلاسفة لا يقول ذلك.

شمر شريف يده وقال غاضباً: بابا انت تقرأ اكثر مني؟ –عاينوا– قال عبد الخالق يشهد الناس – لم يقرأ الا كتابين من الكتاب السطحيين ويتباهى، من انت لتتباهى؟

قال شريف مزهواً: انا بودلير العصر.

ضحك الثلاثة ومسح عبد الخالق الامتعاض من نفسه بجرعة من العرق.

مثل هذا الادعاء من حسين مردان كان رد فعل لحياة الفاقة والتشرد التي عاشها فترة طويلة من عمره فهو يقول مبرراً اختلافه عن الاخرين من حيث التزامهم بقضية الجماهير، والتزامه وتأطير صورته الادبية بمسألتين رئيسيتين، النثر المركز، وابيقورية الوصف الناتجة عن الاعجاب الدائم ببودلير في ازهار شره الذي ولد في قصائد عارية فيقول:–

لقد وجدت نفسي في وضع شاذ وغريب بالنسبة للاتجاه العام، وهنا قررت ان اتخذ موقفي الخاص، وكانت قراءاتي وثقافتي تتنوع يوماً بعد اخر، واكتشفت اني ادور حول نواة واحدة واني اربط وجودي كله بوتر واحد، بعيداً عن العوالم الاخرى من الحياة، فاتجهت شيئاً فشيئاً الى الناس، اعبر عن مشاعري الفردية عن طريق الاخرين، وهكذا ولد شعري.

ويلتقي مصادفة بوالده ويجلسان في مقهى ويبدأ الوالد، عريف شرطة السكك ذو العقلية العملية باغرائه بالعودة الى بعقوبة فيناقشه حسين.

–كم سنة قضيت انت في الشرطة؟

–هذي السنة العاشرة

–ومتى اصبحت نائب عريف؟

–قبل ثلاث سنوات

–بعد سبع سنوات من الخدمة الممتازة، بينما ابنك شاعر ثائر ليس من اولئك الشعراء الذين يقدمون للقراء اطباقاً

قد نجح مردان في إثارة الصحافة المحافظة وقدمته الحكومة الى المحاكمة بتهمة محاولة افساد افكار الشباب الا ان المحكمة برأته من هذه التهمة واخلت سبيله بعد استشارة ادبية لعدد من الادباء والشعراء. ويبدو ان الشاعر لم يكن ليحصل على لقمة يومه بسهولة بسبب من اضطهاد السلطة انذاك للصحافة الحرة وتعذر استمرار صحيفة يومية لا تعتمد على اعلانات الحكومة، فتبطل وتشرد مراراً.

جاهزة منقولة وصفاتها من أي كتاب.. ابنك ثائر.

–على من ثائر؟ على الحكومة؟ لا تورطني

–انا ثائر على جيل كامل

–ساله الاب بسذاجة: منو جيل كامل؟ متصرف؟ وزير –اهوه – هز شريف ذراعه– جيل، يعني ناسا خلقا يعني مفاهيم، يعني تصورات خاطئة، صيغا بالية، عموداً شعرياً.وتنتهي المناقشة بلا جدوى ويعود والده الى بعقوبة لينقل لام حسين المريضة اراء ابنها الغريبة وثورته الدائمة، غير المفهومة للوالدين، على كل شيء.

الصمود

ويعود مردان الى مسكنه الصيفي على سطح الجريدة ليغسل بنطاله ويظل عارياً ينتظر جفافه ليذهب الى صبرية –أمراة الميدان– ليحدثها صباحاً– اذ ليس هناك من شغل لديها ذلك الوقت– عن شهريار وشهرزاد وفولكنر وباريس وروما وهونولولو، وهي مبهورة بحديثه الساحر هذا.وحكت له عن –سقوطها– بالم وصراحة ثم سالته:

–شلون صرت شاعر؟

–اتريدين ان تقولي كيف سقطت؟ ثم بدأ يشرح لها بعد الحال والغباء والرياء والوصولية عنه ولكنهم اولاد الحياة التي اغدقت عليهم كل شيء بينما تركته وهو ابنها قائلة –يا شريف– اذهب الى الجوع والتشرد انا اكرهك فاقول لها: انت التي ولدتني بينما ولدت اولادك وبناتك الاخريات فكانت تقول: اخطأت ادم عليه السلام اخطأ فكيف لا اخطئ انا، ولما يئست من عطفها صممت على ان اكون شاعراً وانتقم منها.

ولم يكن حسين مردان يكره الحياة بل كان يحبها ويخشى الموت دائماً ، الا انه كان لا يؤمن بالرتابة والاعتيادية والجمود، ولقد كان بامكانه ان يعيش في بعقوبة كأي انسان عادي، ويستطيع ان يشتغل كاتباً بسيطاً في المحطة كما عرض عليه والده، ويقرأ الشعر، ويكتب القصائد الا انه اختار الجوع والتشرد والحرية.

التحول البطيء

ويبدو ان فترة السجن التي قضاها بعد صدور –قصائد عارية– و–اللحن الاسود– قد حولت تفكيره تدريجياً الى جانب الشعب ولكنه ظل قلقاً مهتماً بالانسان الفرد مصوراً حالات سقوطه ثم اصدر مقالاته في النقد محاولاً هدم قديم الشعر وتقييم جديده بنرجسية ليتحول بعد ذلك الى الجماهير مصدرا –الربيع والجوع– و –رجل الضباب– و–رسالة من شاعر الى رسام– بعد ان بلغ الحد الثوري اقصاه في منتصف الخمسينيات مدركاً ان عهد الطغاة سينتهي بل مستعجلاً نهايته بكثير من نفاد الصبر

ثورة ١٩٥٨

وتقوم ثورة تموز ٥٨ فلا يتمكن مردان من اصدار كتابه –محاكمات حسين مردان– الذي اعلن عنه مراراً ويموت– نشيد الانشاد– الذي اعاد كتابته من التوراة لشدة اعجابه به، لان النفوس قد انطلقت وابتعد المرء عن ذاته في سبيل المجموع المحتدم سياسياً.

فيكون تأثير –العالم تنور– و –الارجوحة هادئة الحبال– بالسجن او بالكفالة فلم يستطع الثانية مضطراً الى الاول –وفي سجن الكوت الرهيب بدأ التحول الكبير في مجرى حياتي الادبية فقد اقسمت مع نفسي على السير في خدمة الشعب والعمل على قلب ذلك النظام الذي يستل شوق الانسان للحرية بالسجن والحراب» ص١٣١ من –الازهار تورق–.

و –طراز خاص– قليلاً على الجو الادبي الذي يتضح في اتجاهات ملتزمة متباينة لتغلب التناقضات الثانوية بين ابناء الشعب على التناقض الرئيسي بين الشعب والاستعمار.يغني حسين مردان للثورة في –هلاهل نحو الشمس– واغصان الحديد– التي رمز بها لحراب الجيش العراقي الذي قاد الثورة، لكنه يقع –كما وقع الكثيرون– تحت تاثير الحذر الذي احدثته الدكتاتورية الفردية.

ويبدو الشاعر رغم تحسن وضعه المادي واستقراره النفسي قلقاً سياسياً يحاول ان يوجه له خطاً ثالثاً، فهو يخوض معركة انتخابات اتحاد الادباء وينتصر باصوات الادباء الشباب ليصعد الى منصة الهيئة الادارية بشكل اجبر الجواهري والمخزومي وصلاح خالص وبحر العلوم على احترامه والاخذ بارائه.

اننا نجده غير منسجم مع هؤلاء الشيوخ بل يحاول عن طريق عبد الملك نوري وخالص عزمي ادخال بدر السياب وعبد القادر البراك الى اتحاد الادباء، لكنهما يترددان ويتردد الاتحاد في قبولهما.

المهم ان حسينا يحس بالقلق ويجد في المرفأ الذي انشأه سعدي يوسف ورشدي العامل ونزار عباس دليلاً على ثورة الشباب الداخلية بوجه الجدانوفية مجالا للعودة الى صفائه القديم المتمرد.

لكنه يفصل من عمله مع غيره من الادباء ويعود الى مقهى البرازيلية فرحاً ملتقياً من جديد –ولساعات طوال– بعبد الملك نوري وكاظم جواد وعبد الوهاب البياتي الذي يغادر العراق من جديد.

وقد نشأت في البرازيلية فكرة اصدار كتاب عن شاعرية حسين مردان، وكان محركوها عبد المجيد الونداوي ورشدي العامل وخليل الشيخ علي وكاتب هذه السطور.

كان الشاعر يشعر بالالم بل يصرح به يجد ان غيره من زملائه قد حظوا بهذه –النعمة– احياء، ومات حسين وغصة في القلب الذي سكت في ٤ تشرين الاول ١٩٧٢ تملؤه لعدم صدور هذا الكتاب.

وقد حاول مراراً ان ينهي حياته لشدة سأمه وايمانه بلا جدوى ما فعله في ساعات ضعفه فهو يقول –انني محكوم بالركض وراء المستحيل، وان الموت هو الدرب الوحيد الذي يصل بي الى الهدوء، ولذا بدأت افكر بالانتحار ولما كنت اخجل من تهمة الهزيمة، ولو انني لا أؤمن بالعار، تخليت عن الاستمرار في هذا الاتجاه.

وكان يستمع الى احاديث صديقه الشاعر زهير احمد القيسي عن الموت والانتحار ووصايا الكتاب والفنانين المنتحرين بلذة وخوف وقد كتب دراسة عن –تطور فكرة الموت في الشعر العربي– وبث افكاره في عدد من المقالات حول ذلك.

وآن له ان يمتطي صهوة الموت باستسلام طفل ليستطيع الحصول على جواب لطرحه الفكري– من يدري فقد يكون الموت هو الطريق الوحيد لمعرفة النفس؟!وبعد، فلم يكن هدف هذه الدراسة نقداً او تصويراً تحليلياً لحسين مردان الشاعر، بل كانت طفحاً لمخزون من مشاعر فاض بها القلب وآن لها ان تظهر تاركة المسائل الاخرى لظروف اكثر استجابة للتفرغ وللاقلام الصديقة، فما زال الدرب عريضاً للحديث عن حسين الانسان المتشرد الساخط المتألم العاشق الصحفي المكابر المرح الخائف من الموت.. معضلة البشرية الكبرى.

وما زال مردان شامخاً امامنا يحتاج الى مزيد من دراسة وبحث.

عراقيون من زمن التوهج
العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

الصديق الأسطوري الذي نازل طواحين الهواء

أتذكر انني رأيت والتقيت حسين مردان قبل ان تراه بغداد وكان ذلك ما بين عامي ١٩٤٣ – ١٩٤٤ أي قبل ان تضع الحرب الكونية الثانية أوزارها .. وكنت وقتها طالبا في الاعدادية المركزية ببغداد وكنت قد اشتركت في سفرة مدرسية الى بعقوبة في يوم شتائي مشمس. في مقهى شعبي من مقاهي بعقوبة وكان الوقت قبل الظهر بقليل وفد الينا شخص غريب الاطوار والملبس والنظرات وكان كل شيء فيه يبدو غريبا على بيئة مدينتي التي كانت لاتزال ضاربة جذورها في اعماق الريف الذي فقد نصف براءته وظل محتفظا بالنصف الاخر قناعة بالتقاليد العريقة في القدم تمتد اصولها الى ما قبل الفتح الاسلامي للعراق لم يلفت نظرنا في بادئ الامر بالرغم من محاولاته المتكررة ان يلفت نظرنا اذ كان قد وجد فينا وفدا من الغرباء على مدينتي.

عبد الوهاب البياتي

وادرك بحس ابن الشعب الطيب البسيط باننا من بغداد وبعد دقائق أتى إلينا من يقول بان هذا الغريب الوجه والملبس هو شاعر وان اسمه حسين مردان على الرغم من انني واصدقائي الذين كانوا معي في تلك الرحلة الشتائية كنا نتابع الحركة الشعرية في العراق لكننا لم نكن بعد قد سمعنا بشاعر اسمه حسين مردان وبعد وقت قصير اقترب منا مسلما متأبطا دفترا سميكا اسود علاه صدى الايام اللامبالية الغبر واثار الايدي التي تعاورته .. بدأ حديثه عن الشاعر الفرنسي بودلير قبل ان يحدثنا عن نفسه حديث الخبير العليم فادركنا منذ الوهلة الاولى انه يريد ان يتحدث عن نفسه من خلال حديث بودلير وكان بودلير في تلك السنوات غير معروف في الوسط الادبي بالعراق اذ لم تترجم له الى العربية الا قصائد قليلة جدا وقلة ما كتب عنه وعن حياته ثم قرأ علينا حسين مردان بعد ذلك بعض قصائده وكانت تظهر عليها منذ القراءة الاولى بصمات الياس ابي شبكة وغيره من شعراء العرب الذي كانوا يدورون في فلكه ولكننا على الرغم من كل هذه العلامات غير المشجعة اهتممنا به جيدا ونصحناه بأن يترك بعقوبة ويذهب الى بغداد لعله يشق طريقا بين زحامها الشعري الذي كان يوشك ان ينفجر إذ اكتشفنا في نبرات صوته الواثق وفي لون وجهه النحاسي المتحد إرادة لاتقهر ثم اخبرنا بانه كان قد ذهب الى بغداد عدة مرات ولكنه لم يجد من يشجعه على البقاء فيها ولهذا فانه كان يعود قبل ان يقضي اول نهار هناك ولكنه كما اقسم امامنا قرر هذه المرة ان يذهب ولا يعود ..

وفي بغداد – الثورة الشعرية – التي كان الجواهري علمها وحاديها في تلك السنوات كان حسين مردان في كل مكان .. من دون ان يكون خوفه الغريزي من المجهول وطبيعته المتقلبة واحتفاظه بحذره نصف الريفي جعله يبدو حائرا مترددا كما جعله لايستطيع التأقلم مع بيئته الجديدة لكن شجاعته التي هي الوجه الاخر لخوفه وامانته مع صدقه وهاجسه الشعري الاول جعله يقف امام المحاكم ويدخل المواقف والسجون متحديا سلطان الظلام الجائر لتلك الايام ليبدد ظلمة محدقة به وببعض ابناء جيله.

واستعذب الشاعر لعذابه ومن ثم لعذاب الاخرين فجعله لايلتفت كثيرا الى الزلازل والبراكين والاحداث الجسيمة التي كانت تجتاح خارطة الشعر العراقي بخاصة والعربي عامة وفي تلك السنوات العاصفة الحاسمة لكنه كان يبدو وكأنه موجود في قلبها.

وتلك هي لعبة الشعر الغامضة القاسية الخطرة ان تعتقد انك داخل اللعبة الشعرية ولكنك في الوقت نفسه بعيدا عنها بل انك مقيم على تخوم زمنين شعريين، زمن شعري يموت وزمن شعري يولد فتضيع ضيعتين وتستشهد شهادتين .. وستظل ذكرى حسين مردان الذي لم يتمتع بالشباب الصديق الاسطوري الذي نازل طواحين الهواء في زمن العقم واليباب والمجاعة، علامة شاخصة يتوقف عندها القارىء والناقد والمحب ليتزود بنظرة الى بغداد الخالدة التي مات في حسرة حبها شاعر من جيلنا .

حسين مردان يستمع الى رثائه..

لقد كتب فوزي كريم قصيدة في حسين مردان قبل وفاته بأشهر قليلة وظهرت في (الآداب) بعد وفاة حسين مردان بايام قليلة : وكان قد قرأها فوزي لحسين قبل ان يبعث بها الى (الآداب) فقال حسين : انك لترثيني بها وكانت فعلا مرثية رهيبة ليست كالمراثي التي الفناها في الشعر العربي كانت تحليلا دقيقا مركزا للتكوين النفسي والاجتماعي والذاتي لحسين مردان من خلال علاقاته بنفسه وبالمجتمع وبالمصير والثقافة.

لم تكن مرثية فحسب إنما كانت نبوءة صادقة خر على اثرها حسين مردان كالنجم . كانت كالصاعقة التي احرقته .. فقد غادرنا حسين مردان بعدها باشهر قليلة وترك الباب مفتوحا ولن يغلقه احد لانه ليس هناك من يشبههُ.

سيد الفقراء وسيد الحزن : الرجل السر .. المفضوح ..

مجلة الف باء ـ تشرين الاول ١٩٧٣

استعذب الشاعر لعذابه ومن ثم لعذاب الاخرين فجعله لايلتفت كثيرا الى الزلازل والبراكين والاحداث الجسيمة التي كانت تجتاح خارطة الشعر العراقي بخاصة والعربي عامة وفي تلك السنوات العاصفة الحاسمة لكنه كان يبدو وكأنه موجودا في قلبها.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

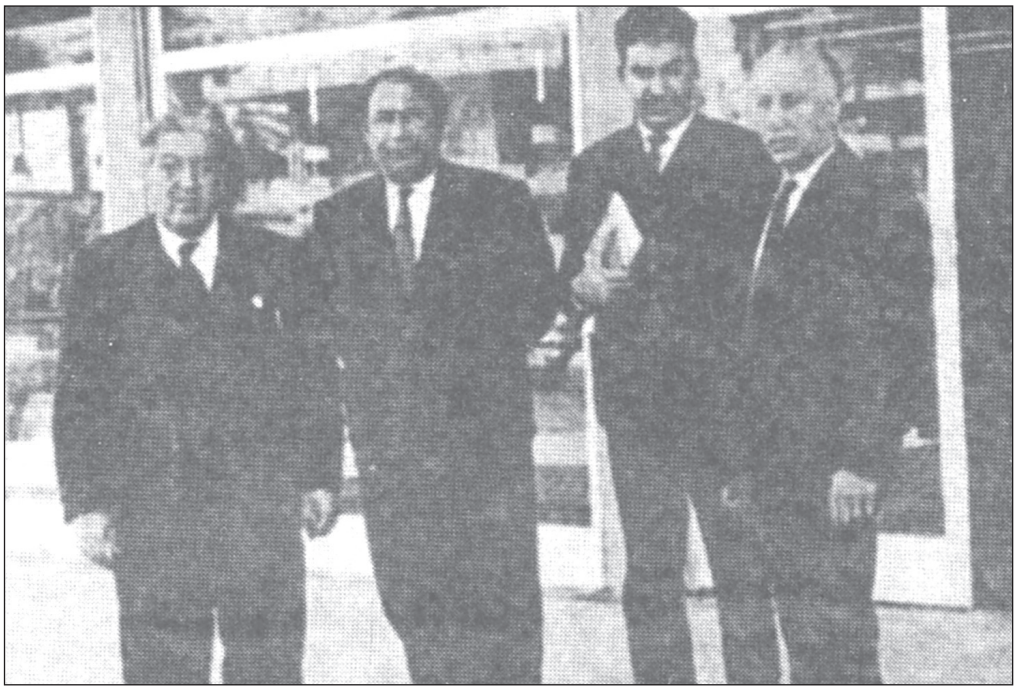

ثمة نقاط في حياة بعض الناس قد لا تصدق..لأنها تكون أشبه باستجلاء للغيب..
ومثل هذه النقاط في حياة الزميل الراحل المرحوم حسين مردان قد لا تصدق من قبل بعض الناس..
لكنني لمستها طوال ملازمتي له خلال ربع قرن أو أكثر.. واللقطة الأخيرة أحدثت دوياً رهيباً في أعماقي في الأقل!.

عبد المنعم الجادر

توقعات عجيبة في حياة الراحل حسين

الطيبة وحدها لم تكن مزية ((حسين مردان)) الوحيدة..بل كانت الحب والوفاء من مزاياه أيضاً.. ويوم عمل في جريدة ((الأهالي)) اندفع في حبها بكل خفقات قلبه. ويوم تعرضت لشبه اغلاق مرض٠٠حسين٩)..ولم يتماثل لشفاء حقيقي حتى انتهت المضايقات عن الجريدة.

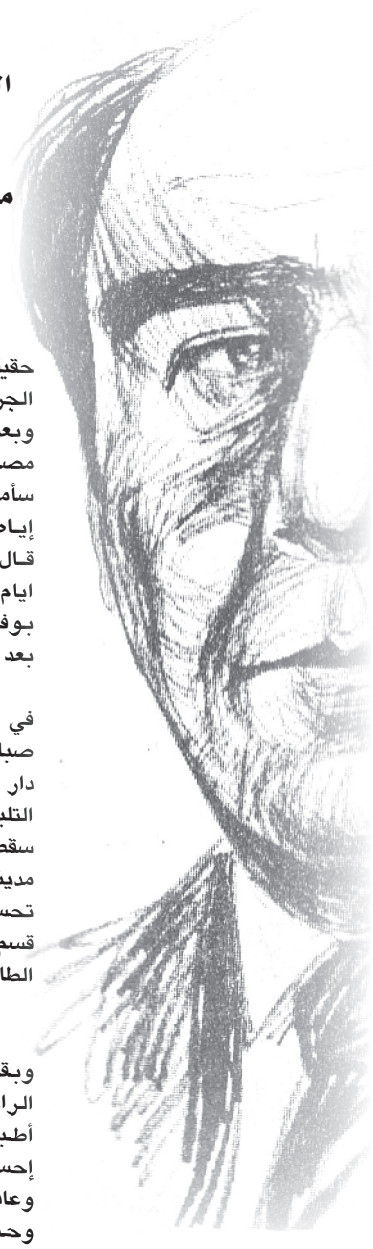

-في الساعة الثانية من ظهر يوم١٣-٩-١٩٧٢ كنا معاً- الزميل الراحل وأنا-..وحديثنا كان عن الحياة وقصرها..ويومها قال لي إنه متضايق من لا شيء..وافترقنا على موعد في اليوم التالي.

-وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي إنساب صوت أحد الأخوان عبر أسلاك التليفون يقول لي أن((أبو علي)) أصيب بنوبة قلبية وهو يرقد الآن في مؤسسة مدينة الطب..وبعد ثمانية أيام تحسنت صحته وقال لي مبتسماً:

-هذه لمرة الأخيرة..تأكد أنني سأموت!.

وبدعابة قلت ضاحكاً:

-تماماً كما قلتها لألف مرة سابقة!.

-أبداً..هذه المرة الأخيرة..وسأفارق الحياة.

وبعد عشرين يوماً انطفأت شمعته..وانقطع وتره..وغابت الشمس من حياته فانتقل إلى عالم آخر في الموعد الذي وقعه.!

هكذا بسهولة مات((حسين مردان))..صاحب اقلب الطيب..وصاحب أغرب نقاط للتنبؤ..

منذ سنوات طوال!

يوم قدم((حسين)) الى بغداد في الأربعينيات قادماً من قريته في أطراف((بعقوبة)) لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة..لم يكن يحمل في رأسه أية أمنيات عراض.. أو أية أفكار لمغامرات طوال..بضع قصائد وآراء كان رأسه يضج بها بما حفظه عن((كامو)).. و((بودلير))..و((بايرون))أو((غوته))و(نيتشه)) مما ترجم لهم ولغيرهم للعربية..وبضع هفهفات من((معلقات)) العرب..وما تركز((للجواهري)) أو من ماثله من شعراء العربية من أبيات قصائد..

ويوم صدرت له مجموعة((قصائد عارية)) حاكم جزاء بغداد الذي قدم أمامه لإصداره تلك المجموعة صرخ به قائلاً:

-إنك تشابه بودلير شعراً مكشوفاً!.

×خطوات المدرسة الأولى!

المتتبعون لحياة رواد المدرسة الشعرية الحديثة..والمدرسة القصصية الحديثة..والمدرسة الصحفية الحديثة فيما بين منتصف الأربعينيات والخمسينيات يعرفون أن ثمة (مقاه)) تأرجحت مكانتها بين((الشعبية)) و((الأرستقراطية)) كانت بمثابة((مقرات)) لابراز انفعالات((فرسان)) هذه المدارس..

ومن هذه المقاهي كان ((مقهى محمود)) في منطقة باب الشيخ..و((مقهى التاج)) في منطقة الكسرة و((مقهى زناد)) في البتاويين و((مقهى أكرم)) في شارع الأمين وغيرها من المقاهي التي كانت تجمع((رواد)) المدرسة الحديثة للشعر والقصة والصحافة..ومنهم كان((حسين مردان)) و((بدر شاكر السياب)) و((بلند الحيدري)) و((غائب طعمة فرمان)) و((كاظم جواد)) و((صفاء الحيدري)) وغيرهم.. ومن هذه المقاهي كانت قصائده الأولى..كما كانت قصائد زملائه الآخرين!.

حب ونبوءات و..موت!

الطيبة وحدها لم تكن مزية((حسين مردان)) الوحيدة..بل كانت الحب والوفاء من مزاياه أيضاً..ويوم عمل في جريدة((الأهالي)) اندفع في حبها بكل خفقات قلبه. ويوم تعرضت لشبه اغلاق مرض((حسين مـــردان))..ولم يتماثل لشفاء حقيقي حتى انتهت المضايقات عن الجريدة.

وبعدها بسنوات لقيته في ((براغ)) مصادفة..وسألني عن الفترة التي سأمضيها هناك..وعند إخباري إياه بأنني سأمضي بضعة اشهر قال لي أنك ستعود للوطن بعد ايام..وصحت قولته، تلقيت برقية بوفاة ولدي.. وعدت إلى الوطن بعد ايام!.

×السقطة النهائية!

في الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم ١٤-٩-١٩٧٢ كان في دار الإذاعة يمرر أنامله فوق قرص التليفون ليتصل بصديق.. وفجأة سقط مغمى عليه..وإلى مؤسسة مدينة الطب نقل..وبعد أسبوع تحسنت صحته كثيراً فنقل من قسم((العناية المركزة بالقلب)) إلى الطابق الثامن للمؤسسة.

اللحظات الأخيرة في حياته..

وبقيت حالته الصحية تسودها الراحة..ويشرف عليها لفيف من أطباء المؤسسة منهم الدكاترة إحسان البحراني ومجيد الشماع وعادل عبد الغفور ومصطفى سليم وحميد الشمر وحسين حبوش وحسان كيسو ووجدي جلال..

وقبل ثلاثة ايام من انطفاء شمعته شعر بأزمة في قلبه فنقل إلى قسم ((العناية المركزة بالقلب)).. عولج فارتاح..

وفي الساعة الثانية عشرة من ليلة ٣-٤/١٠/١٩٧٢ حدثت له ما تسمى في عالم الطب حالة((احتشاء العضلة القلبية)) صاحبتها حالات عدم انتظام في خفقات القلب..واستمرت حالته الصحية تسوء..وتسوء..وفي الساعة الثالثة والربع تماماً من نفس الليلة توقف القلب الطيب عن الخفقان.. وتقطعت الأوتار المرنة في عالم البراءة والطيبة..وتوقفت الخفقات نهائياً..وارتحل حسين مردان إلى عالم ثان توقع إنه سيلجه في الأيام الأولى للشهر الجاري..

وفي الساعة الرابعة و٤٥ دقيقة من مساء٤/١٠/١٩٧٢ كانت ثمة دموع..وارتعاشات شفاه..ونشيج..

ومن الباب الرئيسية لاتحاد الأدباء العراقي سارت القافلة تودع((أبو علي)) إلى مثواه الأخير في النجف الأشرف..

جريدة الجمهورية
٦-١٠-١٩٧٢

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

حسين مردان
وحواره مع مثاله الشعري

ياسين النصير

-١-

تكاد المرأة، في أدب وحياة حسين مردان، أن تكون القاسم المشترك للكثير مما كتبه من: شعر، ونقد أدبي، ونثر مركز، وقصص قصيرة، ومقالات صحافة(١) هي المثال الذي رافق سيرته الأدبية كلها، وهي النموذج الذي يأنس لمحاورته كلما اشتدت به الخطوب.

وترتبط المرأة في أدبه بكل ما هو جديد وحديث. ففي الوقت الذي كان السياب يجد في الأساطير بعض ملامح تجديده الشعري، وفي الوقت الذي ارتبط البياتي بكل ما هو حياتي معاصر ويومي في شعره، كان حسين مردان يجد ضالته في المرأة وفي التمرد الثقافي وفي الفقر والرفض والسجون والوحدة والخوف من كل ما هو مدني مصنوع.

لقد منحته السنوات الممتدة ما بين عامي ١٩٤٩- ١٩٧٢، وهي سنوات الإبداع الحقيقي في الثقافة العراقية، الكثير من الحرية في القول وفي الممارسة. وحسين مردان محظوظ لأنه مات في نهايتها بعدما عاصر أهم إنجازاتها الشعرية والقصصية والمقالية، فالكثير مما كان يقوله في مقالاته وشعره لا يجرؤ أحد على القول فيه ثانية، وقوله في المرأة واحد من العلامات البارزة في الأدب العراقي الحديث لما أتسم به من ربط جدلي بين المرأة ككيان نفسي وبين المجتمع ومشكلاته السياسية، والواضح أن ما تمنحه المراحل المهمة من فرصة للأديب لا تعاود منحه إياه ثانية.

والتجربة المفردة لا تستنسخ لذلك عاش حسين مردان فترته بكل تناقضاته، واندمج بها كما لو كانت خلاصه النهائي، فأعطى ما يمكن أن يعطيه شاعر متألق يحب الحياة كما لو أنه لم يكتشف الموت فيها، ويكره الموت كما لو كان قرينا بالصمت، وما تنوع أساليب القول عنده إلا جزء من محاولته المستميتة للحاق بتناقضات المرحلة وتعقيداتها.

ولم تأخذ العلاقة بالمرأة طابعا واحدا، فمرة تكون رمزا للجمال، ومرة أخرى تكون مثالا للحب، وثالثة تكون امرأة مجردة، إلا أن العلاقة كلها مبنية على شيء من المعانقة السرية، فالشاعر لا يرضى بغير علاقة العذاب، العلاقة التي تفجر الكلمات والصور والأحاسيس، لذلك لم نجد له امرأة واحدة معينة، بل كان له مثال ما تتشكل أبعاده من خصائصها النفسية والاجتماعية، لذلك نحن لا نقرأ عن امرأة ما عراقية أو غير عراقية، بل نقرأ عن كل امرأة يجد فيها كلمة شعر واحدة.

وفي ضوء ذلك نجد بعض ملامح مثاله مستعارة من المرأة الأوربية التي صادفها أثناء رحلاته وسفراته العديدة، امرأة البارات والمقاهي والمدن الزجاجية، والمتعة العابرة، والشوارع والقطارات.. المرأة التي "جردها الفكر الأوربي من صفتي الجارية والربة القديمة"(٢). وصيرها أنسانة تحيا بكامل حريتها لتعطي كامل إنسانيتها، أما بقية ملامح مثاله الأنثوي فمأخوذة من المجتمع العراقي والتي هي وريثة حقيقية لكل متناقضات هذا المجتمع، امرأة تجمع بين المتعة والشهوة، والزينة والخداع، الثقافة والعزلة، امرأة القلب الملغى. ومع هذه المرأة تجد بعض نسوة الأزقة والحواف الملفعات بسواد العباءة وسواد الحزن الموروث.

ليس هناك امرأة ما معينة أو وحيدة، بل مجموعة صفات وخصائص كان حسين مردان يستجمعها كلما أمسك القلم ليكتب عنها. المرأة العراقية الوحيدة التي حافظ على مسافة ما محترمة بينه وبينها هي أمه. ومثل هذه المرأة لا تستطيع أن تمنحه أية علاقة شعرية لأنها مليئة بالإيجابية" فهي المرأة الوحيدة التي تحبني"(٣)، وحسين مردان لا يجيد التعامل إلا مع المرأة غير المنسجمة/ المحسوسة، التي تحمل صفات من شهرزاد وفتاة البار، والمثقفة التي تقرأ كافكا ولا تعرف معنى العبثية. المرأة التي لن تكتمل بقصيدة واحدة، لأن المرأة المتكاملة" لا وجود لها إطلاقا لأن الطبيعة نفسها لم تزل في دور التكوين"(٤).

التجربة المفردة لا تستنسخ لذلك عاش حسين مردان فترته بكل تناقضاتها، واندمج بها كما لو كانت خلاصه النهائي، فأعطى ما يمكن أن يعطيه شاعر متألق يحب الحياة كما لو أنه لم يكتشف الموت فيها، ويكره الموت كما لو كان قرينا بالصمت، وما تنوع أساليب القول عنده إلا جزء من محاولته المستميتة للحاق بتناقضات المرحلة وتعقيداتها.

-٢-

وتكتشف المحاورة بين حسين مردان ومثاله الشعري، عن تنوع خصب لـ" أدبيته". وكان التنوع التعبيري من قصة وقصيدة ومقالة ونقد وأحاديث بمثابة الأرضية المتعددة الأغراض لسيرورة مثاله. ويستطيع الناقد أن يشخص مستويين كبيرين لأبعاد هذا الحوار.

المستوى الأول: اعتباره المرأة كجزء من مفهومه للحداثة في الأدب.

المستوى الثاني: اعتبار المرأة منفذا للمحاورة الاجتماعية. وثمت مستوى ثالث هو حصيلة المستويين السابقين، إلا وهو العلاقة بين المثال- المرأة، والأم. يدفعنا إلى اعتبار هذا المستوى متداخلا بما سبقه لأنه ينمو بنا نحو تفسيرات سايكولوجية بحتة لسنا بصدد معالجتها، رغم أنها ستكون ضمنا إحدى حلقات البحث المهمة.

وميزة المستويات الثلاثة أنها تتداخل فيما بينها، ليس في مرحلة الكتاب الواحد، وإنما في مسيرته الحياتية والأدبية كلها. لعل المستوى الأول، أكثر المستويات تغلغلا في النتاج الإبداعي، فالحداثة تعني لديه محاورة اجتماعية وكشفا أسلوبيا جديدا، كما تعني جعل المرأة رمز إحدى أهم اشكالات المعاصرة. ويفصح المستوى الثاني عن نقاط افتراق عديدة، فالمرأة في مقالاته الصحفية وبخاصة في كتابه" الأزهار تورق داخل الصاعقة" تصبح طرفا إيجابيا في المحاورة، وقضية فكرية، وموقفا اجتماعيا، وموضوعا متكاملا. في حين تصبح في شعره كائنا أنثويا محددا بأعضاء جسدية ، هي في الأغلب الشفاه- النهدان- الوركان- رغم اختلاف بعض القصائد عن هذا البعد. فالمحاورة الاجتماعية بينه وبين المرأة لم تستقر- كما سنرى- خلال رحلته الأدبية على لون محدد من التعامل، ولعل تنوع هذا المستوى وتأرجحه بين الرغبة الجنسية البحتة، والموضوع الاجتماعي الواسع هو الذي جعلها متنوعة ومختلفة.

-٣-

المرأة والحداثة

ما كانت(شموليت) امرأة عادية عندما اختارها حسين مردان لتصبح الوجه الآخر لسليمان الحكيم. فشموليت" هي رمز الجمال المترفع والفضيلة التي كان يفتقدهما سليمان عند جواريه، شموليت هي المرأة التي كانت تعيش في رأس سليمان دائما"(٥). واختار حسين مردان إيقاعية ثنائية يتبادل فيها سليمان وشموليت المناجاة، وتأخذ شموليت أحيانا صفة الراوي الذي يرسم للقارئ صورة الملك سليمان وصفاته وخصائصه.

حبيبي جسمه كلفائف الورد
ومن لحمه يسيل الشذى(٦)

ويتوسع إطار الحوار فيفصح حسين مردان عن معرفة جيدة بتعدد الأصوات،

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

وها هي الجوقة تدخل ككورس يوناني لتعلن اختيار شموليت من بين الجواري خليلة لسليمان:

"شموليت"..

أيتها الجميلة بين النساء
أن لم تعرفي أيتها الجميلة العذراء
فاخرجي إلى البر، وانظري إلى آثار الغنم
فهناك عند مساكن الرعاة
تنتصب ابتسامة جميلة" كقوس السحاب"
تلك هي ابتسامة حبيبك المقدس(٧).

ويتسع جسد القصيدة التي تبدو أنها موضوعة من داخل نص قديم هو" نشيد الإنشاد" الذي أرفقه كاملا في آخر الديوان، ليشمل أطراف الحوار الأربعة: سليمان وشموليت والجوقة والرجل الآخر الذي أراد أن يكونه سليمان، أي الوجه الخفي منه، وبتوزع جسد القصيدة على هذه الأصوات يفصح حسين مردان عن دراية واضحة بتركيب القصيدة الحديثة، حتى أننا لنجد أنفسنا أمام تجربة متقدمة جدا بأهمية التداخل بين الأصوات دون أن تمتزج بها كليا الشخصيات. أن وضوحا فكريا كان يلوح بين مقطع وآخر جعل القصيدة تنمو بطريقة تتابعية لا ملل بين مقاطعها. ويختار حسين مردان في هذه القصيدة الموضوعة، الطبيعة الريفية والمدنية في آن واحد، ليجعل منها خلفية ديكورية هي جزء من واقعية الصور التاريخية، تلك الواقعية التي تربط الملك بممالكه، والملك بما يملك، فكانت الطبيعة والزرع والرعي والصيد والعادات، هي أهم معالم الديكور الاقتصادي المكون للخلفية الفكرية التي تتحكم بطبائع الناس وسلوكهم وحيواتهم.

نزلت إلى جنان الجوز
لأنظر إلى خضرة الوادي
لأرى هل ظهرت براعم الكروم
وهل فور الرمان
وبلا شعور رأيت نفسي بين مركبات" سليمان"(٨)..

ومع أجزاء المشهد الكلي: الشمس والأرض الزراعية، هناك تكملة حسية هي من مكونات البيت: الحياكة، الخياطة، العمل اليدوي، وهناك ملحقات الطبيعة الأخرى، حركة الريح، أشعة الشمس، ألوان الثمر، تدفقات الماء، حيوانات الحقول وطيورها، ومع هذا وذاك، هناك الفعل الطبيعي القائم على الصراع، النسور والقوارض بمواجهة الطيور والأحياء الضعيفة، البحر بمواجهة الأرض، الملك بمواجهة الرعية شموليت بمواجهة الجواري، ويرسم حسين مردان داخل هذا الصراع الكلي صورة واضحة لدور الحب وأهميته والفاعلية التي يخلقها في القلب وفي الطبيعة، حتى أن حب شموليت لسليمان الحكيم ليس إلا جزءا من حب أكبر، وليس إلا صورة بشرية لصور أحياء الطبيعة كلها.

ويتخذ الشكل البنائي للقصيدة طابعا أسطوريا، حديثا هو الآخر. فقد كانت مقاطعها من سبعة مقاطع، تنامى الحدث فيها وتصاعد إلى قمته، والرقم سبعة يمتلك حسا واقعا ميثولوجيا يرتبط ليس بالملك سليمان وشموليت وحدهما وإنما بكل مكونات الطبيعة والإنسان وما رافق نحو هذا، هو التصاعد الفني لإيقاع القصيدة الداخلي إلى الموقع السابع الذي يمثل نهاية منطيقة لكل تراكيب القصيدة الداخلية. فعندما يرفض الشعب اضطهاد سليمان لهم يلجأون إلى شموليت، رمز حبهم للأرض وللحياة معلنين بلسان جماعي.

أما نحن فنشرب التراب
التراب الذي جئنا منه وإليه نعود
ليعذب" سليمان" أجسامنا بالكدح
أما قلوبنا فهي ملك للحب.(٩)

ومع أن القصيدة تسقط في الحقيقة التاريخية، وتحاول أن تجسد عبر أبياتها ذلك التسلسل الذي جاءت عليه القصة، إلا أنها محاولة مبكرة للاستفادة من العهد القديم، وهي الاستفادة التي فتحت الأبواب مشرعة أمام الشعراء اللاحقين عندما بدءوا ينهلون من الكتاب المقدس والكتب الدينية الأخرى، ودارس أبعاد الحداثة في شعرنا العربي الجديد يجد لهذه الكتب تأثيرا واضحا في بنية القصيدة وفي مناخاتها المعاصرة.

إلا أن الخطوة المهمة لحسين مردان تمت بعد هذه القصيدة عندما أبتعد عن الرمز التاريخي الميثولوجي لما فيه من مخاطر السقوط تحت خيمة الموضوع المعلن والمعروف. ورغم أن القصيدة توحي بإدانة واضحة للطريقة التي كان يحكم بها الملوك السابقون إلا أنها حققت لحسين مردان أرضية جديدة لفعل الحداثة. استطاع بعدها ولربما لعجز ما في الموضوع التاريخي نفسه، لأن ينتقل إلى المجتمع المعاصر وإلى نماذجه الحية والمعيشة، وترافق هذه النقلة ما أصطلح عليه بالواقعية في الشعر العراقي، تلك المدرسة التي طبعت شعرنا كله بسماتها واستطاعت عبر الثلاثين سنة الأخيرة أن تؤسس فيها على شيء من الأرتباط بين الشعب وقيمه، بين الحداثة والموضوع الاجتماعي.

ويكاد يكون ديوانه"قصائد عارية" نقلة كبيرة في وعيه، ذلك لأنه امتلك الجرأة على محاربة الرذيلة كما يقول محاميه:" أراد أن يفهم الناس، ماهية الرذيلة، فالرذيلة ستار براق يخلب من كانت تجاربه في الحياة قليلة واطلاعه محدود. فمتى أطلع شخص قليل الدراية على مثل هذه القصائد التي صورت الرذيلة كما هي بصراحة متناهية كاشفة الستار الجذاب عنها اشمأزت نفسه منها وتمسك بالفضيلة. أي أن حسين على رأيه لم يقصد(نشر أمور مخلة بالآداب، بل أراد محاربة الرذيلة عن طريق الرذيلة)(١٠).

ورافقت مرحلة قصائد عارية موجة تمذهب الأدباء وانتماءاتهم السياسية. فاختط حسين مردان لنفسه منحى مغايرا للفلسفات المعلنة، وقال عن نفسه أنه عبقري ووجودي وعبثي فالوجودية" ليست فلسفة إباحية مدمرة كما يصفها أنصاف المثقفين، وإنما هي مرحلة هدفها تحرير العقل من القيود والتقاليد التي فقدت قابليتها للبقاء. وخلق قيم جديدة تناسب تطور الفكر البشري ورفع الإنسان إلى قمة البطولة لتحمل مسؤولياته وأخطائه وحده"(١١).

في مرحلة لاحقة لم يعد يذكر الوجودية، بل السريالية والدادائية واعتبرهما أهم مدرستين، وبخاصة السريالية، وبدت كتابته عن المدارس الأدبية والتيارات والشعر وموسيقاه الداخلية والخارجية والصورة فيه ضربا من التنظير الذي لم يرافقه نهوض شعري واضح، وتوضح هذه الصورة أن الحداثة عند حسين مردان لم تسلك طريقا فنيا واحدا وإنما كانت تطرح عبر الأنواع الفنية التي يكتبها.

وعموما فمرحلة"قصائد عارية" هي مرحلة البدايات لتشكيل وعيه النظري بأهمية الصورة الواقعية القاسية والساخرة، وقد نقل إلى الديوان

الخطوة المهمة لحسين مردان تمت بعد هذه القصيدة عندما ابتعد عن الرمز التاريخي الميثولوجي لما فيه من مخاطر السقوط تحت خيمة الموضوع المعلن والمعروف. ورغم أن القصيدة توحي بإدانة واضحة للطريقة التي كان يحكم بها الملوك السابقون إلا أنها حققت لحسين مردان أرضية جديدة لفعل الحداثة.

صورا عن الحياة كانت من القسوة السياسية والاجتماعية ما يوازي خلق تيار أدبي متقدم على ما هو معروف عن أخلاق السوق الأدبي والاجتماعي، ولذلك قوبل بمواجهة سلطوية أدت به إلى المحاكم.

ومع" قصائد عارية" كانت الموجة السياسية على أشدها فكتب" اللحن الأسود" وغيرها من القصائد التي تلهب على حسب قوله ظهور الطغاة بالسياط.

" الشعر تعبير شبه إرادي عن حالة نفسية أو كشف لحادث خارجي، وبالنسبة لي فقد مررت بمراحل متعددة.. لقد حاولت في قصائدي الأولى والتي ظهرت في ديوان "قصائد عارية" أن أكشط الجلد وأرفع جميع طبقات اللحم مخترقا صلابة العظام للوصول إلى حركة الدم لمعرفة العلاقات التي تربط بين المرأة والرجل.. فقد ظل الحب خيمة مغلقة ينظر إليها الشعراء كشيء له علاقة ما بالسماء".

فالحداثة عند حسين مردان لم تكن كلها مرتبطة بالمرأة، وأن كانت المرأة العين منها. فمتتبع نتاجاته النثرية الأخرى يجدها مليئة بما هو حديث طريقته في فهم الصورة الشعرية، وأسلوبه الحيوي المتدفق، نظرته المتفائلة إلى الحياة، واهتماماته المتزايدة بالشباب. الدعوة المستمرة إلى فهم العالم، والكشف المستمر لما هو في داخل الشاعر. والابتعاد عما هو محبط للآمال. مقنن للموهبة. والاقتراب من الكلمة العامية ذات الدلالة.

حسين مردان في ذكراه

عوّاد ناصر

أكثر من ثلاثة عقود ونصف مرت علي رحيل رجل الضباب كما أطلق على نفسه إذ غادرنا في الساعة الثالثة والربع من فجر ١٩٧٢/١٠/٤ ولم يزل هذا الشاعر الاقتحامي يهدد جملتنا الشعرية ويحيلنا على أولويات التلاؤم بين النص وكاتبه.

التلاؤم، الذي نادرا ما حققه المبدع العربي، تولد علي شكل موقف جمالي في نتاج حسين مردان وحياته معا، فكان من القلائل في التاريخ العربي المعاصر الذين اقتحموا الحياة بالشعر والشعر بالحياة.

طاقته الشعرية انبثقت في أعماله بفعل التوليد الذاتي، أي أنه لم يكتب نصه الجديد تحت تأثير الموضة أو الاستجابة التقليدية لـ «الفكرة الخارجية» كما درج غالبية أقرانه وأبناء الأجيال التالية، رغم إعجابه بـ ت. أس. إليوت.

جاء الشعر من الحياة اليومية، حياته هو، فعامل البناء الشاب، الذي وجد نفسه في معمعة بغداد قادما من الخالص، عام ١٩٤٧، سبق له أن اتخذ قرارات خطيرة منها التخلص من العائلة والضيق بحياة المنزل التقليدي والتطلع إلي فضاء يستوعب فوضي الشاعر الصغير الذي ينوء بأحلام كبيرة.

ذلك الانفصال الاجتماعي والأخلاقي عن البيئة التقليدية (زماناً ومكاناً) مثّل التجلي الأساس للقصيدة المغايرة.. قصيدة الحرية.

ديوانه (قصائد عارية) كان الوثبة الأولى نحو برزخ النار التي أوشكت أن تلتهمه لكنه نجا من المحكمة الرسمية بأعجوبة.

البنية الكلاسيكية للديوان لم تحجب الروح البودليرية الوثابة للشاعر، هذه الروح هي التي حررت الشكل من شكله وأطلقته بقوة الفكرة التجديدية، الاقتحامية، بوجه الأقنعة والوجوه في مجتمع محافظ، منافق، يدعو إلي الفضيلة علناً ويمارس الرذيلة سرّاً وعلناً!:

«ان القناع الذي يخفي حقيقتكم/ قد بات رثاً عديم اللون مثقوبا
تطل من الف شق ذاتكم/ شوهاء تضحك مخدوعاً ومرعوبا
أأدعي الطهر والدنيا باجمعها/ تطفو وتغطس في مستنقع نتنِ
أنا وأختي وأمي والورى وأبي/ تسري بأصلابنا الأرجاسُ منَ زمنِ».

في أربعاء من أربعاءات اتحاد الأدباء العراقيين بداية عام ١٩٧٢ الصيفية كان حسين مردان يجالس ثلة من أدباء العراق المعروفين وكنت أتوق بل أحلم بالتعرف عليه.. طلبت من الشاعر الراحل يوسف الصائغ أن يعرفني عليه، وقد كنت أهابه وأعتبر الاقتراب منه، أو من أمثاله، مهمة شاقة، فأخذ بيدي مثل طفل صغير وقدمني له: «من الشعراء الشباب الواعدين (بداية عشرينياتي).. إنه مثلك يحب ت. أس إليوت». رد حسين وهو يصافحني: لكن الشيوعيين يفضلون مايكوفسكي. علق الصائغ بطريقته الشيوعية المغرضة، أنذاك: لذا قلت هو من الواعدين!

بالمناسبة، لم أكن أطلعت على إليوت إلا في كتاب وحيد، وهو مهم ورائع الترجمة، عنوانه (ت. أس. إليوت – الشاعر الناقد) تأليف ف. أ. ماثيسن، ترجمة الدكتور إحسان عباس) صدر عام ١٩٦٥ من بيروت عن المكتبة العصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين المرموقة.. إلى جانب ترجمات متعثرة لمقالات وقصائد في صحافة تلك الأيام الفقيرة.

كانت تلك الدقائق المعدودات هي زمن لقائي الوحيد بهذا الشاعر الفذ.

ذلكم هو بورتريه بقلم رصاص مستعجل لـ«...رجل الضباب ومن له/ في كل موبقة حديث يذكرُ/ فليعلم المتزلفون إذا التوت/ قدمٌ على قدم بأني أكبرُ».

لكن الوثبة الكبري تجسدت في ريادته لقصيدة النثر العَربية، كما يؤكد المرحوم علي جواد الطاهر، قبل أن يعرف القراء بأسماء أدونيس والماغوط وأنسي الحاج ويوسف الخال ومن تبعهم من الغاوين.. إنه شاعر قصيدة النثر قبل أن يعثر عرابوها القدامى والجدد على «كنز» في كتاب سوزان برنارد (قصيدة النثر...) ليجعلوه إنجيلهم المقدس وليبق حسين مردان عند هاوية النار، منسياً، مع رموز ثقافية عراقية لامعة، ومن العار على ثقافة عربية تتجاهلهم من المحيط إلى الخليج.

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

في حوار صحفي .. حسين مردان:

انا دكتاتور الحركة الادبية

حسين مردان ما يزال حتى الان كما يبدو غنيا عن التعريف ومن قصائدة العارية واسمه يرتبط بالتحدي ومحاولة التجديد ولعل كثيرين لم ينسوا يوم قدمت مجموعته الى المحكمة والضجة التي رافقها على الصعيدين الشعبي والادبي ولعلنا لا نكشف سرا اذا قلنا ان القصاص غائب طعمة فرمان كان موفقا حين استعار بخمسة اصوت صوته فيه نبرات حسين مردان المتميزة مما اكسب خمسة اصوات حيوية كمايؤكد ذلك بعض المطلعين ولن يغير من شهرة حسين مردان تواضعه حين يصرح انه نظم الشعر وكتب القصة والمقالة الادبية والسياسة ومارس النقد والنشر المركز

اضافة الى عمله الصحفي حتى خيل اليه انه موشك على الضياع فتحول اثر ذلك الى مجرد مثقف بعد عمر طويل وبهذافان الف باء ليسرها ان تقدم لقرائها حسين مردان في حديث مثير وطريف كم ديوانا شعريا اصدرت؟ اصدرت قصائد عارية الارجوحة هادئة الجبال اغصان الحديد طراز خاص وكم كتابا؟

× اصدرت في النثر المركز نشيد الانشاد الربيع والجوع صور مرعبة العالم تنور هلاهل نحو الشمس عزيزتي فلانه هل اصدرت كتبا اخرى؟

× اصدرت مقالات في النفد الادبي ماهو النثر المركز وهل له علاقة بما يسمى اليوم بقصيدة النثر؟

×لقد ادى الضيق بالوزن والقافية عند الشاعر المعاصر الى نوع من التمرد واللجوء الى هذا النوع من النثر الفني والذي شاع في عهد جبران وامين الريحاني عن طريق ترجمة الشعر الاوربي الى اللغة العربية فعمل بعضهم على تطويره والاعتناء به لكي ياخذ شكل القصيدة من ناحية الاهتمام من نوع الكلمة وموسيقية واختصار الجمل وتركيزها للاستعاضة عن الجهد الذي يبذل في القصيدة الموزونة اما السبب الحقيقي الذي دفعني الى كتابة هذا النوع من

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

النثر فهو اكتشافي ان الوزن يحد من اظهار الحيوية النفسية ونقل العالم الباطني بصورة دقيقة

•اذا انت لاتعتبر ان النثر المركز شعرا على الرغم ما فيه من عناصر الشعر؟.

-طبعا ولذلك اطلقت عليه اسم النثر المركز في الوقت الذي كان ينعت بالشعر المنثور او القصيدة النثرية..

•مارايك بقول بعضهم ان قصيدة النثر ستكون شعر المستقبل ؟.

-منذ ملايين السنين والكون في حالة من التوسع وتلك الحضارة وان ما يرافق هذا الامتداد في حياة الانسان من تعقيد سيدفع بالفنان الى رد فعل قد يؤدي الى تبسيط الفن والادب بصورة عامة ولكن هذا لايعني ان القضية ستصبح قانونا اما رأيي الخاص فاني اؤمن ان مهمة الفنان هي حل العقد عن طريق التوضيح كما يدور حولنا .. وعليه ارفض الغموض في الادب والفن وان كافة المدارس الفنية منذ الدادية وحتى السريالية اخذت تضمحل وتفقد تاثيرها المباشر بالحركة الادبية والفنية على المستوى العالمي ..

•لقد نشرت مؤخرا بعض القصائد فهل تعتقد ان شعرك قد تطور كما كان عليه في اغصان الحديد مثلا ؟؟ -ان التطور قد لايبدو بقصيدة واحدة حتى ولو كانت هذه القصيدة هي اخر ما نضمت وانما التطور يحدث من حيث الخط الشعري العام فهناك بعض الموضوعات تفرض على الشاعر تكتيما معينا وحتى الكلمات ففي قصيدتي (استنبول) تعمدت الوضوح التام وكذلك في قصيدتي (مدينة النحاس) وعندما اتعرض لحادثة لها صدى داخلي الجأ الى كلمات وصور تختلف تماما حتى في طريقة العرض كما جاء في قصيدتي الليل والموت وراء سور الليل في الصمت

من هوة الصمت
يصرخ بي عبر المدى صوتي
كانه موتي الفجر لن يطلع لن ياتي ..

•انا شخصيا الاحظ ان الوضوح الذي تلاحظه والتزامك الشديد لقافية واحدة في قصيدتك الحديثة قد اثر فيها ؟

-لكل حرف رنينه الخاص ولكل كلمة موسيقاها ولعل العنصر الاساسي في الشعر هو الموسيقى والطفرة التي حدثت بالانتقال الى الشعر العمودي الى الشعر الحر كانت عميقة وواسعة بحيث ادت ببعض الشعراء الى اهمال ما للقافية من تأثيرها مباشر على السمع ولعل معظم هؤلاء يرفض كيفية الانتقال من قافية الى اخرى وبالاصح من موسيقة حرف الى موسيقة حرف اخر .. فرايت ان من واجبي ان اعطي امثلة عملية على ان القصيدة الحديثة بالدرجة الاولى تعتمد على تجزئة التفاعيل والمحافظة على الموسيقى الداخلية التي يجب ان تساير الاوهام للقصيدة المتعددة بالقطعة الشعرية .. وقد التقيت مرة بالشاعر اللبناني امين نخلة واستمعت اليه وهو يتجهم على الشعر الحديث وعندما قرات له بعض قصائدي ابدى ارتياحه لان ما ينشر في المجالات تحت هذا الاسم لايمت الى الشعر الحقيقي بصلة ..•انني لااتفق معك في الاراء فالشعر عندي لايحتاج الى كل هذه الالتزامات وعلى اية حال هل تعتقد ان الامثلة الشعرية التي قدمتها للتدليل على هذه الاراء كانت ناجحة ومقنعة ؟.

-ان ذلك من مهمة النقاد ومادمنا لانملك ناقدا واحدا فستقبى المشكلة مطروحة الى اليوم الذي اقرر فيه ان اصبح انا نفسي ناقدا وانني في طريقي الى ذلك وعندها الويل لكم.

•لمن قرات من الشعراء الذين جاؤا بعد جيلكم ومارايك بما قرات لهم ؟.

-لقد صدمتني الان واني لااعترف بقصويري عن تتبع النتاجات الشعرية للشعراء الشباب الا ان هذا لايعني ان انا لم اقراء لبعضهم والمصادفة هي التي تتحكم بهذا الشاعر او ذاك وكثيرا ما كشفت لي هذه المصادفة عن شاعر ممتاز ومن هؤلاء فاضل العزاوي وشاعره ذات اجنحة متعددة ولكنها قصيرة اسمها امال الزهاوي على انني الوم هؤلاء الشعراء الا انهم لم يحملوا الي شخصيا ما ينشرون من مجموعات ..

•هل تعتقد ان من واجبهم ان يفعلوا ذلك ؟.

-طبعا فانا دكتاتور الحركة الادبية وباستطاعتي ان اهد الجبل على أي شاعر كما ان باستطاعتي ان اضعه فوق أكبر ناطحة سحاب .. فحتى السياب هو الشاعر الفذ كان يقرأ في قصائده الجديدة لانني لست شاعرا فحسب بل لانني احد منظري الشعر ..

•ومن هو افضل شاعر عراقي او عربي لديك ؟.

-ان الشاعر الحقيقي هو الذي يفرض رايه على الجميع ولم يظهر مثل هذا الشاعر في العالم العربي حتى هذه اللحظة .

•من هو افضل شاعر عالمي برايك ؟.

-اليوت .

•اذا كنت ديكتاتورا في الشعر الا يمكن اعتبارك شاعرا يفرض نفسه على الكل ؟.

-كلا انا شاعر اعيش مع زملائي الاخرين وان ديكتاتوريتي ليست في الشعر وانما في تثبيت القيم الصحيحة لحركتنا الادبية .

هذا الحوار نشر في مجلة الف باء ١٩٦٩

أنا دكتاتور الحركة الادبية وباستطاعتي ان اهد الجبل على أي شاعر كما ان باستطاعتي ان اضعه فوق أكبر ناطحة سحاب .. فحتى السياب هو الشاعر الفذ كان يقرأ في قصائده الجديدة لانني لست شاعرا فحسب بل لانني احد منظري الشعر ..

مشروع مذكرات:

من أيام الطفولة

أنا لا أعرف اليوم الذي ولدت فيه لذا لا اعرف عمري بالضبط. ويزعم دفتر النفوس أني قد جئت إلى العالم في سنة ١٩٢٧ وهذا التأريخ موضع شك ايضاً. والأرض التي شاهدت وجهي اول مرة تقع في قضاء(طويريج) وتدعى اليوم(الهندية).. ولا أعرف أصلي كذلك، فوالدي يزعم أنه من قبيلة العبيد ومن آل سلطان بالذات(أيمن الشيوخ) أما أمي فتدعي أنها من عشيرة البيات. ولم أقم بأي تحقيق في الموضوع. فلم اكن أؤمن في يوم ما بمثل هذه الأمور. ولذلك لم أضف إلى اسمي أي لقب كما هي العادة المتبعة عند البعض واعتقد شخصياً أن جذور عائلتي تمتد إلى قوميات متعددة! فالشكل العام لا ملامحي وعيني بصورة خاصة يؤكد أن عروقي تحمل الدم العربي ممزوجاً بدماء الترك والكرد. وأظن أن هناك دماء أخرى.

ولعل هذا الخليط هو السبب في وجود هذا الكائن المتناقض الذي يدعى حسين وسيكتشف القارئ صحة هذا القول الذي يبدو الآن غير طبيعي كلما توغل في هذه المذكرات..

قضيت السنين الأولى من طفولتي متنقلاً مع والدي بين مدن الفرات الأوسط ثم انتقلنا إلى قضاء الخالص وهناك دخلت المدرسة الابتدائية ولم أعد اذكر من أصدقاء المدرسة غير جاسم العزاوي وآخر اسمه الأول حارس وقد نسيت اسم أمه، حيث كنا حينذاك نسمى بأسماء الأمهات، والغريب إني لا أستطيع أن أرسم صورة واضحة لهذا العهد من حياتي. والفيلم الوحيد الذي لم يمسح تماماً هو الذي يظهر فيه الزقاق الذي كنا نسكن فيه والشارع المؤدي إلى مكتب البريد وساحة المدرسة وبستان الصولاغ المجاور لدارنا. مع بعض الصور الجيدة الوضوح للمعارك التي كانت تدور بين أبناء محلتنا-السوس- وأبناء محلة- الحلفه- وأتذكر أن قائدنا كان يدعى جاسم أما زعيم جماعة الحلفة فشخص اسمه((أكبر)). ولي مع أكبر هذا قصة صغيرة.

يخيل لي أني لم أكن طفلاً في يوم من الأيام فأنا لا أستطيع..وعلى الرغم من خيالي الواسع أن أتصور نفسي صغيراً ابتسم لكل من يداعبني.. وكل ما أتذكره من ذلك العهد هو مجموعة من الصور المتقطعة الباهتة. ولقد ولدت في مدينة طويريج ولا أحتفظ لهذه المدينة الصغيرة بغير شريط من الماء الأصفر هو نهر الفرات. وفي قضاء الخالص ترعرعت وقد كتب قصة صغيرة عن بستان بالقرب من البيت الذي كنا نسكن فيه وهي بستان الصولاغ ولعلها قد أصبحت اليوم شارعاً أو دائرة حكومية، وترتبط هذه البستان في ذهني بعدة مغامرات بسيطة كالبحث عن أعشاش الطيور وسرقة الفواكه. ومن الأمكنة التي لا يزال طيفها ينتصب أمامي كلما قرأت شيئاً عن هذه المدينة هو هذا الصندوق الأحمر والنهر الرفيع الذي يطوق البيوت من الناحية الشرقية. وللأنهار تأثير خاص في ذاكرتي فكل المدن التي عشت فيها تدور في نفسي حول الأنهر وأعتقد أن السبب هو أن النهر كان مصدر حكايات كثيرة عن الحيوانات والمخلوقات المائية.

وتزعم أمي أني كنت في منتهى الوقاحة وإني كنت سريع الغضب وأحب التشرد في الأزقة ولم أكن أحب اللعب إلا مع البنات ومع ذلك فلم تحبني امرأة طوال حياتي.. واذكر إني كنت من أمهر رماة الأحجار وقد قتلت لقلقاً ولقد أحزنني منظره وهو يلوب من الألم ومنذ ذلك اليوم تركت هذه اللعبة اللعينة ولم أعد إليها إلا مرة واحدة في مدينة استكهولم في السويد. والعجيب أني قد أصبت الهدف في هذه المرة أيضاً ومنحت جائزة جميلة وهي((فرارة من الورق)) أهديتها لمرافقتي السويدية.

لقد تعلمت في طفولتي أشياء كثيرة ومتنوعة مثل السباحة وركوب الخيل وصناعة التماثيل الطينية ومراكب الورق. وغيرها من الألعاب التي كانت شائعة حينذاك. ولكن تسلق الأشجار كانت هوايتي المفضلة. فقد كنت شديد الولع بأكل النبق والتفاح الأخضر والتوت..أما في الليل فكنا نتجمع في ساحة المحلة أو نتجول قرب السوق ننصت إلى سبيل الصخب المقبل من الباعة والمقاهي. ولا يزال وجه العم((مهدي)) الذي كنت أحلق شعري عنده يعود إلى عيني بين فترة وأخرى..هذا في الصيف أما في الشتاء فكنا نتحلق حول مناقل الفحم أو أعواد الطرفة ومن بين القصص المسلية التي كانت تسردها((أم محمد)) كنت أحب قصة الطنطل ذلك الكائن الجبار الذي يخاف من منظر إبرة الخياطة! كنت أميل إلى صداقة الكلاب وانفر من رؤية القطط! ولم اكره أي مخلوق مثل كراهيتي للجرذان. ربما لأنها تأتي إلى عالمنا من وراء الثقوب المظلمة. لقد كانت تخيفني وإني لاستغرب كيف أعطي الجرذ في أيامنا الحاضرة هذه الشخصية الفذة وخاصة في أفلام الكارتون. ومن المؤسف حقاً أن معظم تلك الحكايات اللطيفة والتي ترمز بعضها إلى صفات أخلاقية معينة لم تجد حتى الآن من يمد يده إليها فيخرجها من صمتها المظلم ويضمها بين دفتي كتاب، وقد انقرض قسم منها ولاشك إنها ستختفي بعد سنوات إلى الأبد. والقصة الوحيدة التي ظلت عالقة في بالي هي قصة الديك الذي كان لوالده بذمة السلطان مبلغ قرش واحد. تبدأ القصة عندما بلغ الديك سن الرشد وقرر الحصول على هذا القرش وسأحاول كتابتها وتقديمها للقراء الصغار في عدد قادم من-مجلتي-..

أما بالنسبة لذاكرتي المدرسية فقد كنت أود كافة الدروس عدا اللغة الإنكليزية. هذه اللغة التي أشعر بأشد الحاجة إليها الآن.. وكذلك درس الحساب الذي كان عدوي اللدود ولقد عاشت هذه العداوة إلى اليوم بل أنا اكره حتى البنوك والآلات الحاسبة كما إنني وبالتبعية أضيق بمعاشرة كل من له علاقة بدنيا الحساب والمحاسبات. ومن النكت الطريفة إنني كنت مرة أناقش البعد الرابع عند انشتاين مع دكتور في الرياضيات وكدت أحظى بإعجابه لولا تدخل أحد الخبثاء حيث همس فقال إن من يناقشك في النسبية والبعد الرابع لا يعرف الأبعاد الثلاثة فدهش الدكتور ورفض سؤالي عن الابعاد هذه. ولكن صاحبي أصر على ذلك فاضطررت للاعتراف بعدم معرفتي بها وعندما قيل لي إنها الطول والعرض والارتفاع ضحكت من غبائي.

عن كتابات يفرك الصدأ
د. علي جواد الطاهر

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

هل كان ملتزماً

عبد المجيد الوندواي

هل كان حسين مردان ملتزما؟

قد يكون السؤال((جافاً)) أكثر من اللازم وأنا أريد أن أتحدث عن خمسيني في الأسبوع الأول من موته ولكنني أنا الذي اخترت السؤال لأن في فمي غصة عمرها بضع وعشرون سنة في ١٩٤٩، و١٩٥٠ وما بعدهما. كان معارفي من السياسيين والمثقفين يهاجمون حسيناً في معرض نصحي بالتخلي عن صحبته ولم استطع ابداً أن اقنع أي فرد منهم أن حسيناً لي((وجودياً)) بالمعنى الذي كانوا يفهمونه، وليس(متجلاً) كما يقول بعضهم، وإنه كن رجلاً فذاً وملتزماً وصاحب مبدأ نبيل..

كانت ابتسامة السخرية ترتسم ومعها التفاتة الرأس إلى اليمين أو اليسار علامة لعدم التصديق، وبقيت حتى أصبحت في أعوام متأخرة أما أن أسكت واقر بواقع جهل كثير من سياسيينا ومثقفينا بالالتزام، وأما أن أصطحب معي أبا علي إلى الشخص-غير المصدق-إذا كان بطبيعة الحال من الرجال الصادقين مع أنفسهم ليسمع شعره- فهو كان حجر الزاوية في التهمة التي يلصقها الناس به أو يلصقها هو بنفسه - ليصدق، مرة أعجب أحد الأشخاص الذين لهم رأي خاطئ في حسين مردان، بشعر أبي علي وأخرج جهاز التسجيل من دولاب قريب منا وطلب من حسين أن يسجل القصيدة بصوته وظل معجباً به حتى وفاته-وفاة الشخص - وقرأ ديوانه الأخير-طراز خاص- بكل دقة وكان يسألني عن كثير مما فيه، فهو لم يلتق بابي علي في أيامه الأخيرة.، ولأقل من هو هذا الشخص، إنه كامل الجادرجي، ولابد أن التسجيل الصوتي لحسين لا يزال في مكتبته فقد كان يعتز به.

كنت اقول للجادرجي بصراحة أنه لا يمكن أن يفهم حسين مردان وجيل حسين مردان، لأنه نشأ مع جيل الزهاوي وكان يتردد عليه يسمع منه شعره، ومع جيل الرصافي واعجابه به معروف، وقد تقدم به العمر فهو لن يفهم حسين مردان شاعراً لأن ذلك شبه مستحيل. قلت هذا او ما يماثله لعزيز شريف مرة، وكان عزيز شريف وكامل الجادرجي يردان القول بأنهما يقدران لحسين موقفه السياسي والمبدئي بلا تردد، فقد كان كل من يعرف حسين مردان شخصياً يعرف أنه رجل ملتزم. الشيء الوحيد المختلف عليه هو-شعره الجنسي- وهل كان يتفق مع التزامه أم لا.

هل هذا هو السؤال إذن؟

جاء حسين مردان الى بغداد من قريته بعقوبة - فقد كانت ما تزال إذ ذاك قرية، بعد أن لعنه أهل قريته لأنه كان يعتزل الناس في أطرافها ويحمل العصا، أو أية صورة تستحق اللعنة في القرى، وفي بغداد اقتحم المجتمع المدني بكل سخريته بالغريب. وحسين الشاب لم يكن خالي الوفاض-على ما يعتقد أي قروي يحمل بضعة دراهم- ولكن دراهمه لم تكن نقداً، فقد كانت قصائد ساذجة إحداهما كما روى لي قصيدة حماسية ألقاها في تظاهرة وطنية في بعقوبة- وبقدر ما احتفظ بوضعه الذي جره معه من قريته، وضع أهله ومحيطه الكادح، فانه لم يتجه في ذلك الوقت أبداً- اتجاهاً منحرفاً، فقد عمل في مختلف المهن لكسب عيشه بما في ذلك عامل بناء، وقد روى لي تجربته تلك وهو يحمل الطين إلى الطابق الثاني أو الثالث في البناية التي يعمل في بنائها فيهوله مرأى الناس صغاراً في الشارع المجاور، وهو في-دشداشته- وفوق رأسه قفة الطين. فهو لم يختر التشرد يوماً ما وإنما فرض عليه التشرد في فترات معينة في حياته ولأسباب سياسية في كل حالة.

كان في تشرده الأول قريناً لبلند الحيدري. وبلند الحيدري شاعر تمرد على عائلته الارستقراطية والتي لها صلتها بأجزاء العائلة الثارية الأخرى. كان أمامه في ذلك الوقت- وقد جاء من القرية غريباً غير معروف الإنتماء- أن يواجه صداقته مع بلند الوجهة المربحة. ولا أعرف كل تفاصيل رفقة حسين وبلند في تشردهما ذلك، فلم أكن أعرفهما، وهما تحدثا لي بشيء قليل عنها، ولكنني استنتج أن حسيناً قد فضل أن يرافق بلند في التشرد على ان يرافقه على بيت أقربائه والأغنياء، وكان بلند على ما يبدو لي يجد في تلك الحياة حقلاً صالحاً للحراثة والزرع لما هو عجيب. كل هذا يدل على نبل والتزام حسين مثلما يدل على نبل والتزام بلند الحيدري.

المهم في الموضوع، سواء صحت تلك الصورة أن لم تصح، هو أن حسين مردان لم ينقل في تلك الفترة قدميه إلى حي بعيد، فهو قد ذهب الى جريدة الأهالي القريبة من مقهى الزهاوي-والماهي الأخرى التي يلتقي فيها الأدباء- ليبدأ عمله الصحفي الطويل مخبراً محلياً ومصححاً في تلك الجريدة. ومع إنه لم ينتم قط إلى الحزب الوطني الديمقراطي، ولا إلى أي حزب آخر كما أعلم، فإنه استفاد بالتأكيد من كتابات الأهالي التي كان صحح بروفاتها في المطبعة-وأصبح فيما بعد ينام ليلاً في زاوية خاصة من بناية المطبعة المذكورة- وفي تلك الفترة نظم شعره الذي ضمه فيما بعد ديوان-قصائد عارية-.

الشعر الذي عرف به حسين مردان ذلك كان موضع لعنة الناس..ولكن أي ناس؟ إنهم أولئك الذين لم يفهموه وأولئك الذين أحسوا فيه خطر الثورة على المثل البورجوازية المتحجرة ثانياً. فحسين مردان في شعره-الجنسي- لم يختر نماذجه إلا على أرض الفقر والبؤس، ولم تكن أفكاره حالمة مشرقة بهيجة كما يراد من شعراء الطبقات المالكة، وإنما كانت واقعاً فنياً قاتمة مدمرة كما يجب أن تكون عليه أفكار شعراء الفقراء البائسين.

أليس هذا من الالتزام في شيء؟

نعم وبلا شك. حتى شعره المكابر، مثل أن يقول:

ها أنا ذا رجل الضباب ومن له
في كل موبقة حديث يذكر

لم يكن إلا تحدياً للمثل البورجوازية، فهو شخصياً لم يرتكب موبقة على ما أعرفه، إلا إذا اعتبرنا السكر كذلك، وحتى في سكره لم يكن حسين يعربد ابداً.

وبعد أن دخل حسين مردان السجن في أوائل عام ١٩٥٣ على أثر قرار المجلس العرفي ربطه بكفالة شخص ضامن قدرها مائة دينار- ولم يتقدم أحد لتقديم تلك الكفالة البسيطة وتخليصه من السجن -، بعد أن دخل السجن قضى وقته كله في نظم الشعر الملتزم. وظل حسين إلى آخر حياته ينظم شعراً ملتزماً، ويكتب ملتزماً..

ولا أريد أن أختم هذه الكلمة القصيرة دون أن أورد سطوراً من[شعره]:

ومنذ ألف عام،
أو يزيد
يُجلد وجه سيدي الحسين بالسياط
ويقطع النياط
في كل قلب ابيض..لينزل
الستار
على القذى في مقلة النهار
لكنه العياط
جرثومة تنقلها النساء للصغار
فلينهض النيام
ولتبصق الأفعى على الطعام
فالأرض منذ عاد
لم تنبت الأفراح للعبيد
وليضمد الطغام
فإنني أبصر من بعيد
في أفق((سامراء)) طيف صاحب
الزمان
يخرج من سردابه القديم

وعندما وجد حسين مردان في أواخر حياته أن نماذج بورجوازية أخذت تتسرب إلى شعره وتكاد تخنقه، ترك نظم الشعر وأعلن ذلك بك جرأته.

مجلة الاذاعة والتلفزيون
١٩٧٢/١٠/١٥

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

كآبة بغداد . . ديوان حسين مردان المفقود

عبدالقادر الجنابي

حسين مردان (١٩٢٧- ١٩٧٢) شاعر فطري ذو مخيلة متفتحة لكل ما هو جديد... وهو بوهيمي الكتابة بقدر بوهيميته في الحياة اليومية، فهو كما وصف نفسه "رجل شارع حقيقي... عبد حرية لا تطاق، حرية ترفض ان تُربط حتى بشعرة رفيعة". كان يكتب ردود فعل أحاسيسه، من دون رتوش، لذا كانت النتائج تأتي شروخا في مفهوم "النوع"، دون ان تخلق "نوعا" أدبيا متميزا جديدا. كتب أولا وفي فترات فيما بعد قصائد موزونة... مارس كتابة "مقالات" لها وقع ابداعي جديد على عالم النقد الثقافي العراقي آنذاك.. وكان يستقي من النزر المترجم، جل الأفكار التي كان يعيشها فطريا (كالسوريالية، الوجودية.. الخ)... وفي زحمة هذا الصراع بين الشعر المتعارف عليه حرا أو عمودا والنصوص النثرية المسماة مقالات، وفي التنقل بين الأشكال التعبيرية المختلفة، كان يشعر أن "الوزن يمنعه من بلوغ أشياء صغيرة في مطاوي نفسه البعيدة ونقلها إلى الورق كما يحس". لذلك خلق أسلوب "النثر المركز"، "خلقا لأهرب من وجه الوزن الكريه"، على حد عبارته. وخلاصة "النثر المركز" هي كتابة جمل نثرية متوترة، قصيرة أو طويلة بعض الشيء، في سطور متوالية كأنها الشعر الحر. لحسين مردان خمسة دواوين من النثر المركز: "صور مرعبة" (١٩٥١)، "عزيزتي فلانة" (١٩٥٢)، "العالم تنور" (؟)، "الربيع والجوع" (١٩٥٣) و"نشيد الانشاد" (١٩٥٥) الذي أعاد ترجمته مبينا القوة النثرية للنص، والغريب أن الشاعر اللبناني أنسي الحاج قام بنفس المحاولة اواخر ستينيات القرن الماضي، عندما اعاد صياغة نشيد الإنشاد. وعندما انضم حسين مردان أواخر عام ١٩٦٨ إلى أسرة تحرير الأسبوعية العراقية "ألف باء"، خصصت له صفحة أسبوعية يملأها إما بمقالة، انطباعات سفر، أو بقصيدة من النثر المركز أو من الشعر الحر... وقد استمر على هذا المنوال إلى أن وافاه الأجل في اليوم الرابع من اوكتوبر عام ١٩٧٢. وتجدر الإشارة هنا إلى أن حسين مردان تنبأ، قبل مايقارب ٣ أشهر من موته، بأن العراق سيدخل مرحلة "الكظم الأدبي"، وذلك في مقالة عنوانها "الجدل لا الكظم" ("الف باء" ١٢ تموز ١٩٧٢).

كتابات حسين مُردان، سواء في مقالاته الأخيرة أو في نثره المركز، تتميّز بنثر ذي حركيّة نصّية تجعل الجمل تتلاحق على نحو غير قابل للاختزال، وكأنها عملية محو للفاصل بين المضمون والتعبير: "دكان تفاح وليمون، هذه المخلوقة الطيبة. إنها تهرول إلى السوق. في زمن ما بعت سروالي لكي اسكر بثمنه. كان معي غائب طعمة فرمان وعبدالمجيد الونداوي. هكذا شربنا البنطلون في كازينو بلقيس.. إيه.. والتف الحبل الرمادي على قدمي.. من أين جئت؟ إن جبيني يلمس أرجل الوعل" ("من يفرك الصدأ").

كما أن حسين مردان يكاد يكون، في نظري، أول كاتب أعمدة يضع عناوين غرائبية لمقالاته الأسبوعية تذكر بالأسلوب السوريالي بل حتى بالصحافة الأوروبية المتقدمة، في استعمال العنوان كمجاز صادم: "الصعود إلى الواقع"، "لا يوجد غير وجهي في المرآة"، "الضوء أكثر من لون"، "فوق قالب الصابون"، "العودة إلى هي"، "الكركدن وقوانين المرور"، "القلم الأخير في قضية الشرق الأوسط"، "السمك يفقد طعمه الدموي"، و"العمق كبعد ثالث" الذي ينهيه بهذا المقطع: "كذلك يجب على الشاعر أن لا يفرح لمجرد إلقاء القبض على رأس الحبل الملقى في أغواره وإنما عليه أن ينحدر معه عبر المدن والقرى إلى الكهوف والأحراش ليشاهد – نفسه – عندما كان عاريا يقفز من شجرة إلى أخرى."

في كل هذا المسار الكتابي ثمة ما يسمى بالانجليزية humour والكلمة هذه مفتاح لفهم كل الأعمال الأدبية الكبرى في العالم. فالفكر الغربي، شعرا ونثرا وحتى في أشد حالات يأسه، يقوم على مضمون هذه الكلمة التي ليس لها مقابل عربي سوى: فكاهة... وبالتالي فهي كلمة انتقاصية في الذهنية العربية المتخفية وراء حجب الجدية المصطنعة. نعم هناك فكاهة في كتابات حسين مردان مثلما في أعمال كبار كتاب أوروبا، لكنها فكاهة "تسلم التقاليد الموسومة بالمقدسات إلى ألسنة اللهيب الأكثر صفاء في الخيمياء الذهنية... إنها قدرة استقبالية لدى الإنسان تجاه ما يحيطه. طريقة خاصة لرد الفعل تجاه كل ما تنقله الأحاسيس وذاك من الساعة الأولى إلى الأخيرة من النهار ومن الحياة"، كما وضح جورج حنين في مقال له. إنها مزاج humour الفرد، خلطٌ من أخلاط جسمه، في لحظة المواجهة مع واقع لا سلطة له فيه.

إن من يراجع ما كتبه مردان في "ألف باء" ما بين ١٩٦٨ و ١٩٧٢، سيصطدم بعبثية تسمية ما يكتبه هذا الأسبوع بـ"مقالة"، والأسبوع التالي بـ"نثر مركّز". ذلك أن ما كان يعتبره مردان "مقالات" تكاد لا تختلف في جوهرها ولغتها وتوترها وتركّزها، عما كان ينشره، في نفس المجلة، كقصائد يسميها من "النثر المركز" ذات الشكل المشطر على طريقة الشعر الحر. إذ يكفي ان نشطّر على طريقته المستعملة في كتابة "النثر المركز"، بعض مقالاته الذاتية، فنحصل على نموذج بامتياز لما يسمى "قصيدة من النثر المركز" وفق مقاييس مردان نفسه. اليكم هذا المقطع من مقالته المعنونة بـ "هي الآن في شارع فرعي":

"خطوة.. خطوتان.. عشرة.. مائة.. إلى أين؟ ليس هناك مكان معين.. المساء لحاف خلق، يتمدد على جبهة الأفق. لكم هو حزين هذا اللون الرمادي الباهت! خطوة. ورفع أحدهم يده بالتحية.. من يكون؟ وتلفت إلى الوراء.. إنه لم يشاهد مثل هذا القالب. هذا الشكل المفرطح! هذا.. ما أثقل المساء!" ("الأزهار تورق داخل الصاعقة"، ص ٢١٣ بغداد ١٩٧٢)

والآن لنشطره على طريقته في كتابة "النثر المركز":

خطوة.. خطوتان.. عشرة.. مائة.. إلى أين؟ ليس هناك مكان معين.. المساء لحاف خلق، يتمدد على جبهة الأفق. لكم هو حزين هذا اللون الرمادي الباهت! خطوة. ورفع أحدهم يده بالتحية.. من يكون؟ وتلفت إلى الوراء.. إنه لم يشاهد مثل هذا القالب. هذا الشكل المفرطح! هذا.. ما أثقل المساء!

وإذا قارنا التقطيع هذا الذي قمنا به، مع تقطيع لأحدى قصائده من النثر المركز، لوجدنا تشابها جد كبير، لغة وأسلوبا وتوترا. هنا مقطع من قصيدة له من النثر المركز عنوانها "العودة إلى هي":

أنت هنا فوق الصخر
فاذهب:
فلم يزل في أعماق الغابات المظلمة
كهف لم يُكتشف بعد.
هناك تستطيع ان تخلع قناعك وتفهم
لغة الصمت
وعلى ضوء هلال أخضر
سيأتي صوت قدميها،،
يخفق فوق النسيم.

("ألف باء" ٢٩ كانون الثاني(١٩٦٩)

عن موقع ايلاف

أن حسين مردان يكاد يكون، في نظري، أول كاتب أعمدة يضع عناوين غرائبية لمقالاته الأسبوعية تذكر بالأسلوب السوريالي بل حتى بالصحافة الأوروبية المتقدمة، في استعمال العنوان كمجاز صادم: "الصعود إلى الواقع"، "لا يوجد غير وجهي في المرآة"، "الضوء أكثر من لون"، "فوق قالب الصابون"، "العودة إلى هي"، "الكركدن وقوانين المرور"، "القلم الأخير في قضية الشرق الأوسط"، "السمك يفقد طعمه الدموي"، و"العمق كبعد ثالث."

العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

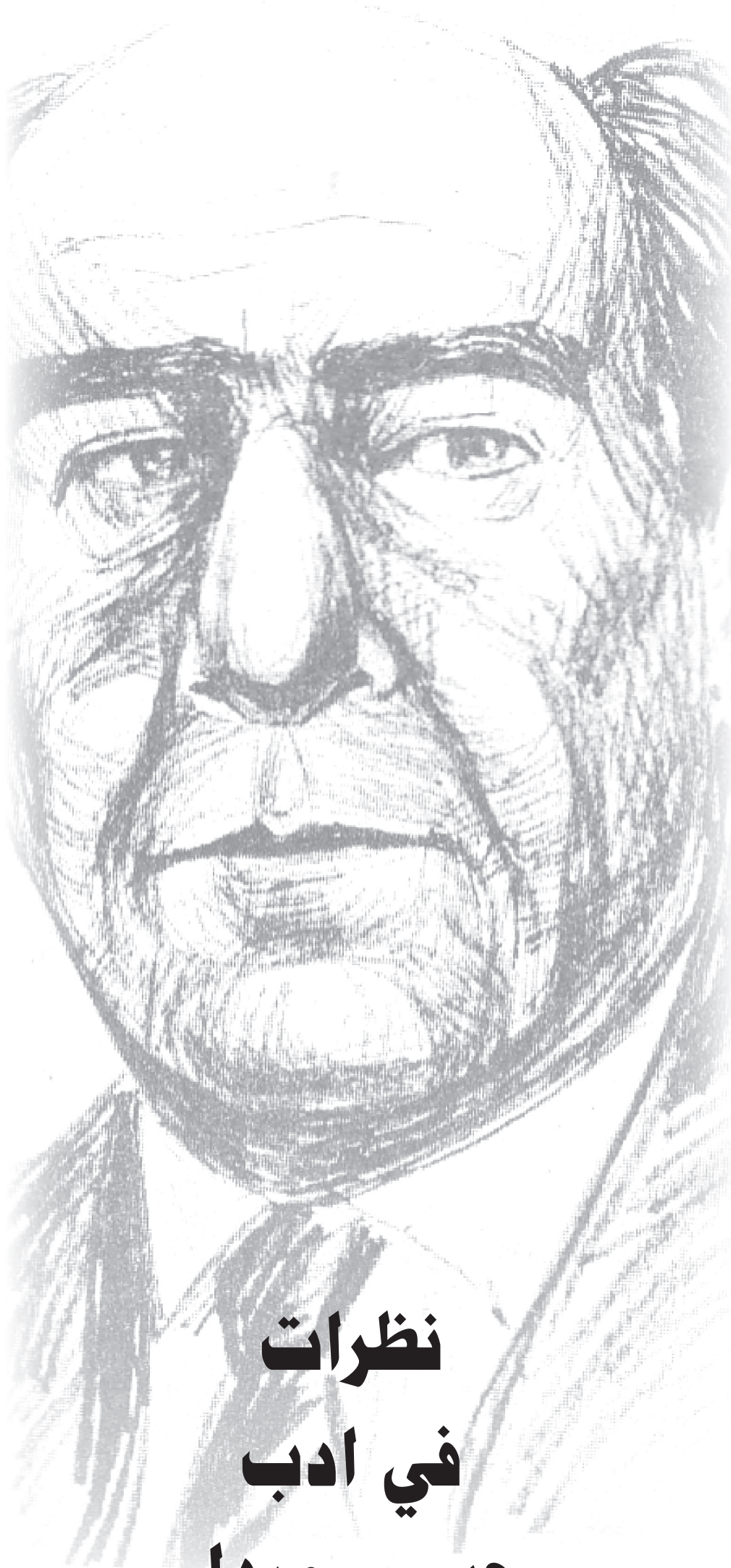

نظرات في ادب حسين مردان

عبد الجبار عباس

يرد اسم حسين مردان في تاريخ الشعر العراقي الحديث مقترنا بمجموعة (قصائد عارية)، ولكننا لو تأملنا تلك القصائد في ضوء من اعادة التقييم لوجدنا انها لم تكن الوجه الوحيد او الاكثر اهمية لريادة حسين مردان الادبية كما قد يظن كثيرون.. فلقد ادرك بعد سنوات ان القيمة الريادية لتلك القصائد القليلة الملتهبة تكمن في انها محاولة جريئة لتجسيد نظرة اخلاقية جديدة على البيئة العراقية اكثر مما تكمن في كونها تمثل انجازا شعريا ضخما.. فهي لاتخرج في لغتها وصياغتها عما هو شائع من الاساليب وطرق التناول الشعري، في مقدمة كتابه (صورة مرعبة) قال: كان ديواني – قصائد عارية- اقلها عمقا اذا قيس بمؤلفاتي الماضية..

لقد فوجئ الناس ذات يوم بفتى في العشرين يلقي بحصاة ضخمة في مستنقع الركود الآسن، فيهجر استجابة لنزوة جنونية مدرسته وبلدته ويفد الى بغداد صعلوكا عاطلا طويل الشعر او عامل بناء اجيرا يطالعه كل صباح وجه الجوع الاصفر، فلا يكبح فيه ذلك الطموح الهائل الى الشعر والتمرد، فقد كان عقد العزم على ان يلفت الجو الشعري المحتشد بالاسماء المشهورة بطريقته الجديدة الخاصة متحديا بذلك المدينة بطريقته الشاذة كخطوة اولى في مسرة صعبة وصاخبة الى قمة الجبل مقتبسا مما قرأ قناعة (عاطفية) بأن الفنان لن يرتفع الى القمة الا عن طريق الحضيض، كان مهما وضروريا له ان يبدو كتلة نار وسيوف.. وكانت الشرارة الاولى في هذه الكتلة الحمراء يوم انتصب الشاعر الناشئ ليكشف في الصفحات الاول من كتابه الرجيم عن رغبة حادة في المجابهة والتمرد على (اعز) مايملكه الاخرون من (فضائل) اخلاقية:

(ايها القارئ المحترم.. انك لا تفضلني على الرغم من قذارتي وانحطاطي وتفسخي الا بشيء واحد، وهو اني احيا عاريا بينما تحيا ساترا ذاتك، فنصيحة مني الا تقدم على قراءة هذا الديوان اذا كنت تخشى حقيقتك وتخاف رؤية الحيوان الرابض في اعماقك)..

ان شاعرا ناشئا مغمورا في اواخر الاربعينيات لايرضيه ان يعترف بأنه وعائلته والورى تسري باصلابهم الارجاس من زمن، بل يهز جمود قارئه المتطابق فيحمله حملا على التغني بذلك النشيد الحقير والانتماء الى الطين المدنس لجدير بأن يثير من عواصف الاستنكار ما ينسى الناس في غبارها ان هذه القصائد المجلجلة في صخب او الحزينة في انكسار، لاتكاد تخرج عن دائرة الشعر الخطابي الموروث والعاطفي السائد، لولا ما انطوت عليه من جهر بالمحرم واعتراف بالمشين.. نسي الناس في غبار الضجة والمحاكمة ولجب الخصوم والانصار ان تلك القصائد العارية محاكاة شخصية لافاعي الفردوس تبدأ من اجوائها ومحاورها الاساسية:

(النشوة كبديل عن مهزلة الايام، الجنس كمبدأ واساس لبناء الشخصية الانسانية، الحب مهرب من موت وجواب عليه).. وتتجاوزها الى اضافات واختلافات ثانوية صغيرة في المعاني لاتنتهي الى تفوق في المستوى والمعالجة والاسلوب، فمجموعة (قصائد عارية) على صعيد التقييم الفني تكاد تكون تنويعات على نغمات ابي شبكة الاصيلة وهوامش (عراقية) في زوايا عالمه الاحمر دون ان ترقى الى مستوى الافاعي اشراق ديباجة ونصاعة بيان ونضارة لغة واحكام بناء، وتضيف الى تلك المحاكاة او تستعيد فيها، الوقوف عند ذلك الجرح التقليدي الموروث: ينز في قلب انسان كان بالامس شاعرا عبقريا طاهر اللحن ثم عانت به صروف الليالي، منتهية الى نزعة شبه فلسفية اساسها ان ميلاد الانسان كغيابه لعنة لو مسّها الحب استحال المرء مفعم الروح.. وبغياب الحب تموت رجفة الخير في الضمير ولايعود القلب سوى حفنة من تراب، تلك نغمة سائدة في شعر اواخر الاربعينيات الرومانتيكي.. اذ يكفي ان تقرأ مثلا (خفقة الطين) لتلحظ سيادتها في شعر حسين مردان وبلند الحيدري المبكر، فكأننا اذ نقرأ الخفقة والقصائد العارية انما نقرأ كتابا واحدا له ما يماثله ويتفرع عنه ويعلو عليه في شعر الاربعينيات العراقي والعربي، لقد كان حسين مردان وبلند الحيدري وصفاء الحيدري ابرز ممثلي هذه الرومانتيكية الجنسية الجديدة، سوى ان حسينا كان اكثر جرأة في الذهاب الى اطراف من هذه الدائرة يحيلها مواقف ونظرات واحكاما عن الحياة والانسان.. وجذر هذه الرومانتيكية هو الياس ابو شبكة الذي ورق بدوره هذا النزوع وبلغ به مستوى شعريا مرموقا حين طبعه بطابع الاصالة والنضج الذي مهدت له ثقافته الاوربية، الفرنسية خاصة.

على ان حسين مردان في استلهامه العاطفي الحار لهذا النزوع الرومانطيقي لم يكن مقلدا كاذبا ينتحل تجربة لم يعرفها او يجعل من المحاكاة الشعرية تعويضا سيكلوجيا عن فقر او غياب التجربة الفردية.. فقد كان حسين مردان منذ البدء شاعر عاطفة محتدمة لاتني تستعر في قلبه وجسده، وكان ميله الى تقديم صور فاقعة عن حقائق الجنس العارية طبعا فطريا اغنته التجربة في المدينة والثقافة الادبية المنوعة، لكنهما لم يبتعدا به عن العفوية والتلقائية المحتدمة بنزعة حسية مشبوهة.. فرغم ان ظل ابي شبكة ينبسط على اغلب قصائد الديوان، فلم يكن مرد ذلك ان حسين مردان يستعير تجربة لم يعشها كما يفعل صغار الشعراء الناشئين حين تكون المحاكاة عندهم دليلا على غياب التجربة الخاصة وتعويضا عنه، بل لان ابا شبكة كان قد ارسى دعائم عالم شعري جديد وجذاب حفر آثاره في وجدان شبيبة جيلين، وكان بين شعراء المرأة في جيله الصوت الاعلى والاقوى والاجرأ على جعل الجنس، بعيدا عن الاعتبارات الاخلاقية الموروثة محورا لشعره ومفتحا لكل اكتشاف آخر، لقد استعار حسين بعض نظرات ابي شبكة واشياء من لغته ومعالجته الشعرية حين وجدها تتطابق مع توقه الى تجربة خاصة مشابهة متفجرة بالثورة العاطفية، ربما وجدنا في تلك القصائد ميلا الى مبالغة الشباب المحروم من

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

الحب النقي حين يتحدث عن المرأة في بيئة قاحلة لاتسمح له بأكثر من (مغازلة فتاة في درب عتيق مربد).. ربما وجدنا ميلا الى تعميم بضع افكار سيئة الظن بالانسان والمرأة والحياة لتكتسب القصائد صبغة فلسفية حكمية.. لكننا لانستطيع ان ننسبها الى ماكانت تتخبط فيه مئات القصائد الرومانطيقية التقليدية من كذب وانتحال وتقاليد، بل كانت اعترافا بالحقيقة كما كانت تتراءى له حقيقة النفس وحقيقة المارد المسجون في قمم يترسب في قعر الذات فلا يعرف لونه (مقدمة: صور مرعبة) وكانت الثورة فيها منسجمة مع طبع اصيل لم يفارق الشاعر يوما، فحسين مراد خلق انسانا ثائرا تستهويه المعارك وتثيره الخصومات فيقتحم ساحة الصراع بشجاعة الصعلوك ونقاء سريرة ابن الشعب الفقير، فهو مقاتل نظيف وحفيد عصري للشعراء الصعاليك، رجل شارع حقيقي لايعرف المراوغة،، وكان اديبا يعشق تبوح به الشفتان.. عرف ذلك الجميع في حسين مردان واحبوه من اجله.. فما كان لشعره ان يكون اسهامة في انعطافة مهمة لمسار الشعر العراقي لو لم يلتزم حسين مردان منذ البدء هذا الاعتراف بالحقيقة والسعي لاذاعتها، فاهمية القصائد العارية تنبع من انصافها بصفات كانت نادرة آنذاك في الشعر والاخلاق معها: الجهر الجريء والصديق الذي قد يصل تفجره الى المزاعم عن الذات الاخر، والمكاشفة التي لا يحول دونها حائل من تقاليد سائدة او تعفف كاذب او تواطؤ رخيص.

لقد اغدقت الطبيعة على حسين مردان نعمة سابغة حين ابقته طفلا يكبر عمرا وتجارب ولكن الطفل فيه لايكبر ولقد املى هذا الطفل على حسين اهم صفات ادبه: الجرأة والوضوح والبراءة ومزاعم الاطفال البيض، فجاءت اعماله الادبية اعترافات وخواطر وبيانات شخصية يطلقها شاعر يعتز بفرديته قدر اعتزازه بشعبه وجماهير البائسين منه،، وهذا ما غلب الطابع الغنائي في شعره على الطابع الموضوعي الذي يختفي فيه المؤلف وراء نسيجه الفني وجعل التأثير القصصي ضعيفا في اغلب قصائده التي تعتمد قصصا شعرية قصيرة مثل (تجربة مع راقصة، عشيقة قبيحة، مغازلة فتاة في درب عتيق).. ومن هنا، لا من رفضه استعمال الكلمات والتعابير التقريرية في سبيل الحوار كما يقول، كانت معارضته الشعر المسرحي والمسرحية الشعرية (الازهار تورق داخل الصاعقة ص ١٥٧).. وحين حاول في قصيدة (السلسلة) المكتوبة سنة ٩٥٦ ان ينجز عملا تركيبيا مكونا من اربعة مقاطع تلخص معركة الجماهير ضد جلاديها لم يكتب سوى عمل تمثيلي بدائي يخلو من متطلبات البناء الدرامي المتكامل، ان القصيدة عنده نفثة تصل الى هدفها فورا وفي خط مستقيم، وكلماته بيانات شخصية او جماعية مركزة قد ترسم نموذجا انسانيا معينا، ولكن بضربات سريعة، فتمنحنا صورة جانبية لوجه الشخصية بدلا من ان تضعها في تجربة او حدث يكشف عن حياتها مثل (هذا الرجل الغريب، ظل الشيطان، رجل الارض)..

وحين كان حسين مردان يتجنب التصريح ويؤثر التلميح، فان هذا لاينتهي به الى البناء الشعري الموضوعي بل الى النثر الفني المركز، الى المقالات المبطنة بالدلالات السياسية،، وقد كتب بعد محاكمته الشهيرة طائفة من القصائد التي ظاهرها الغزل ومخاطبة المرأة وباطنها غمز السلطة القائمة انذاك ٠راجع مقدمة: رجل الضباب سنة ٥١.. وقد قال ذات مرة (اكتب للذين يبحثون عن المعنى الدفين وراء سور الكلمات) ان احب المواقف الادبية الى نفس حسين مردان واقربها الى قلبه واوثقها هي تلك التي يقف فيها على رؤوس الاشهاد ليلقي بيانا شخصيا جريئا.. وهل كانت (رجل الضباب) الا بيانا ثائرا يبدأ من الدفاع ضد التهم الاخلاقية الموجهة للشاعر لينتقل الى تناول قضية حرية الفكر الى تفنيدها الى التهديد والتوعيد وتقريع الجماهير والتبشير بالغد الاتي والفخر بالذات وتمجيد الوطن.. وحين اصاب حسين الشهرة طاب له ان يشعل (معارك ادبية صغيرة) خلال كتاباته الصحفية واضعا نفسه بثقة وخيلاء معا على صعيد واحد مع كبار كتاب الصحافة الادبية، ابطال المعارك الثقافية في الادب العربي المعاصر.

لقد اسهمت الضجة الاجتماعية والصحفية الواسعة التي رافقت ظهور (قصائد عارية) ومحاكمة الشاعر، في تقديم حسين مردان للناس بوجه الشاعر الخليع المتلذذ بهتك كل محرم.. وكان لتزمت البيئة الجامدة المنغلقة المتسترة، وتنامي الاحساس بضرورة توظيف الادب لاصلاح المجتمع المريض، وانطلاق ثورة الشاعر الشاب الى اقصى ما تصل اليه قوة وجهرا واحتداما، الاثر البالغ في تقديم حسين بهذا الوجه.. هل نقول الان عن تلك القصائد ما قاله محاميه في المحاكمة، انه اراد ان يفهم الناس ماهية الرذيلة،، وهل نصدق حسين حين يقول: حاولت في قصائدي الاولى ان اكشط الجلد وارفع جميع طبقات اللحم مخترقا صلابة العظام للوصول الى حركة الدم لمعرفة العلاقات التي تربط المرأة بالرجل، وكنت اريد مساعدة المرأة الشرقية المعاصرة على الخروج من اقبية وسراديب ذلك العالم؟ كشف باهر للذات ومهمة اصلاحية جليلة ينسبهما حسين مردان لتلك المجموعة الشعرية الصغيرة.. وقد ننسبهما نحن لها ايضا.. ولكن الواضح ان الشاعر الفتى كان مدفوعا في بداياته الشعرية بعاطفة محتدمة حبيسة وجائعة اكثر مما كان مدفوعا بنزوع الى الاكتشاف او الثورة الاجتماعية،، عاطفة الفتى النهم المحروم من الحب النظيف

اغدقت الطبيعة على حسين مردان نعمة سابغة حين ابقته طفلا يكبر عمرا وتجارب ولكن الطفل فيه لايكبر ولقد املى هذا الطفل على حسين اهم صفات ادبه: الجرأة والوضوح والبراءة ومزاعم الاطفال البيض، فجاءت اعماله الادبية اعترافات وخواطر وبيانات شخصية يطلقها شاعر يعتز بفرديته قدر اعتزازه بشعبه وجماهير البائسين منه.

في بيئة تتكتم على تلوثها هي جذر هذه المجموعة ومنبعها.. اما اكتشاف حقيقة العلاقة بين الجنسين وتحريرهما من اصفاد التقاليد الجائرة فنتيجة عرضية يزعمها حسين دون ان تكون لها آثار واضحة في شعره انه يتحدث عن نفسه اكثر مما يتحدث عن المرأة، ويدعوهما الى الاستهتار والتهتك ظانا انه يدعوها الى الثورة والتمرد، فهي عنده مسكينة حين تخدعها اطياف المنى.. ولاسبيل الى تجاوز هذه المسكنة الاّ بأن تتخدر بالموبقات وتؤمن باللهب المقدس في دم الشاعر احسب ان ما قدم يعد خطوطا عامة لثورة شاملة في تلك القصائد العارية ليس الا النتائج السيكلوجية لذات محتدمة بشبق عارم تتحرق الى ثغر مندى يخفق فوقه الورد، فلا تمنحها البيئة المنغلقة الشحيحة الا لقاء عابرا مع القبح، فلا يملك الشاعر الا ان يتشبث في احتجاجه اليائس بهذا القبح، وان يزعم انه يحبه فيقسم بكل قبيحة.. يجعل من القبح فلسفة وقانونا، ويدعوا المرأة الى ان تشترك معه في القبح فلسفة وقانونا.. ويدعو المرأة الى ان تشترك معه في احالة هذا القانون الى اخلاق وممارسة.. فما دامت الدنيا باجمعها تطفوا امام عينيه وتغطس في مستنقع عفن.. ومادام شقاء التقي ونعيم الشرير قدرا مقدرا رسمه (قدير يدري بما في الصدور)- اية ثورة اجتماعية هذه اذن؟! فأي طريق اجدى من طريق الحان واللذة!.. وهو اذ يدرك ان الحنين الى ذلك الذي فات يوما غير مجد لايعود يملك سوى اثارة اللحكة والقبول مرغما بما هو سائد بين الرجل والمرأة في مجتمعه واقامة عرس من اللذة الدائمة الموصولة في ليل هذا الماخور الذي لاملجأ ولامهرب سواه..

ولكن بقدر ما كانت الشهرة المستعرة التي لاتمييز في ضرامها بين (خد ناعم حلو الرواء وبين خد معتم) ركنا اساسيا في شخصية حسين مردان.. فقد كان الحنين الى الحب الوثير الناعم الدافئ حب الالفة والصداقة ركنا اخر راح يتضح بتقدم الشعر في السن والنضج.. ثمة جوع عاطفي ملح الى الحب النقي رافق حسين حتى يومه الاخير وانطقه باجمل كلمات الحب في نثره الفني الجميل، ان حسين مردان واجد من كتاب الحب والشوق في النثر العربي المعاصر.. وهو الوريث الاكثر نضجا واقتدارا ورهافة لتقاليد النثر الفني العربي في تناوله موضوع الحب والشوق والغزل..

ان تلك القطع البديعة من ادب الغزل بالمرأة الذي شده الى (نشيد الانشاد) فأعاد صياغته: ادب التقرب من المرأة والتودد اليها والثورة عليها والحنين الى لقائها، هي شعر ينضح رقة وجمالا وصدقا.. شعر يكاد يفوق الكثير من شعر حسين مردان الذي مالبث في مرحلته الوسطى (هلاهل نحو الشمس، الارجوحة هادئة الحبال، اغصان الحديد) ان تسمر عندما هو عادي ومألوف بين شعراء جيله،، مهد لذلك شيوع انماط سهلة وركيكة من الشعر الحر كتب حسين شعره الحر ضمن تقاليدها الجاهزة والشائعة، ساعد على ذلك ان حسينا لم يعرف الشعر الحر في ينابيع الاوربية،، ان نثره الغزلي مرآة شاعريته ودليل ابداعه لانه النبع الاصيل الصافي في شخصيته المجبولة على الصفاء، انطقه باجمل نغمات الحب التي استعاد فيها ٠الف ذكرى غضيضة الالوان).. هو نبع عميق يمتد الى تلك الومضات النقية التي كانت تتلامح وسط حلك المواخير والدخان والاضواء الحمراء في القصائد العارية، واستعادة لذلك الحديث الذي كان (كشذى الورد في ضفاف الجنان) والذي كان لقيطا غريبا تدوسه اقدام البغايا وتعفي على همساته الضحكات الماجنة، فاذا هو يبعث في قطعة النثرية الصادقة ليكون به حسين مردان واحدا من كتاب النثر الفني اهم منه في الغالب السائد من شعره، لقد انطلقته الشعر (الحار) ثورة الفتوة والحرمان من الحب الحقيقي.. وحين تجاوز الفتوة واتيح له ان يتذوق الوانا من الحب امسى الشعر عنده مجاراة لموجة الشعر الحر الناشئة المتعثرة لا تضيف اليها ولاتشمخ فيها بانجاز ضخم مرموق.. وكان نبع الشعر فيه خلال ذلك يبحث عن الارض المانسبة التي يتفجر فيها مرة اخرى، فوجدها في النثر الفني، في قصيدة النثر التي كان حسين مردان رائدا (فنيا) لها، وبخاصة في عمله الطليعي الساذج لغة لكن المهم افقا (العالم تنور)..

لقد كان حسين مردان يعرف الجوهر الشعري للنثر عنده، فكان يرى فيه سبيلا الى الكشف عن السرداب السري لنفس الانسان المعاصر والاداة الاكثر استجابة لنقل كل الخلجات والمشاعر الخفية كما كانت في غرفها المغلقة.

لا احسب اننا ننساق مع حديث (الازمات) الصحفية او البحث عن مأساة تختم بها حياة كل اديب راحل لو قلنا ان حسين مردان كان يعيش في سنيه الاخيرة وضعا اقرب الى الازمة لم يحجبه الاستغراق في السفر والقراءة والعلاقات الاجتماعية الواسعة، لقد تباعد، شأن كثير من ادباء جيله، ما بينه وبين نبع الشعر، ولئن كان (دكتاتور الادب) قد اعترف بأنه لم يعد يكتب الشعر لانه – في زعمه- لم يعد يصلح للتعبير عن الجنون فقد حالت كبرياؤه دون ان يعرتف بأنه لم يعد يكتب في كل الاحوال نثرا هو الشعر، لم تبق له الا صفحته في مجلة (الف باء) يحار كل اسبوع: اي موضوع سيكتب فيها، لذا جاءت كتاباته فيها خليطا من المذكرات والتأملات وحديث السفرات وومضت فيها بضع قصائد نثر لامعة، اضافة الى اسهامات في النقد الصحفي والوان من المقالة الادبية..

يقول في كتابه (الازهار تورق داخل الصاعقة):

منذ الصباح وانا اتجول في قلبي، بحثا عن ذكرى او شبح، عن رجفة حارة او لوعة، لاشيء غير قالب من جليد وظل غزالة تبتعد وتغيب في عتمة الاعماق، وكلما ارسلت كفي لتحفر في داخلي ويمسك بعطر اغنية او لمعة ضوء عاد وامتلأ بالغبار والطين.. فالى اين ذهبت تلك الوجوه والمناظر والكؤوس المترعة، واين اختفت غابات الريحان والطيور وجداول الضحك لقد اكلت نصف العالم ولم ازل فارغ العينين..

لقد سبق لحسين ان عبر في (صور مرعبة) وبعض قصصه القصيرة عن ذلك الجدب الروحي الذي كان يفترس قلب المثقف الشاب في ليل حكم العمالة والارهاب والتخلف حين يعود الى الذات المطاردة المحبطة فلا يصطدم الا بجدران الشلل والتعب النفسي حيث تنعكس على صفحة الذات الداخلية ظلال قاتمة من خواء الواقع الاسود.. ولكن الاحساس بالجدب مختلف هذه المرة، انه احساس من انتهى الى طريق مسدود..

مجلة الاقلام
اذار ١٩٧٥

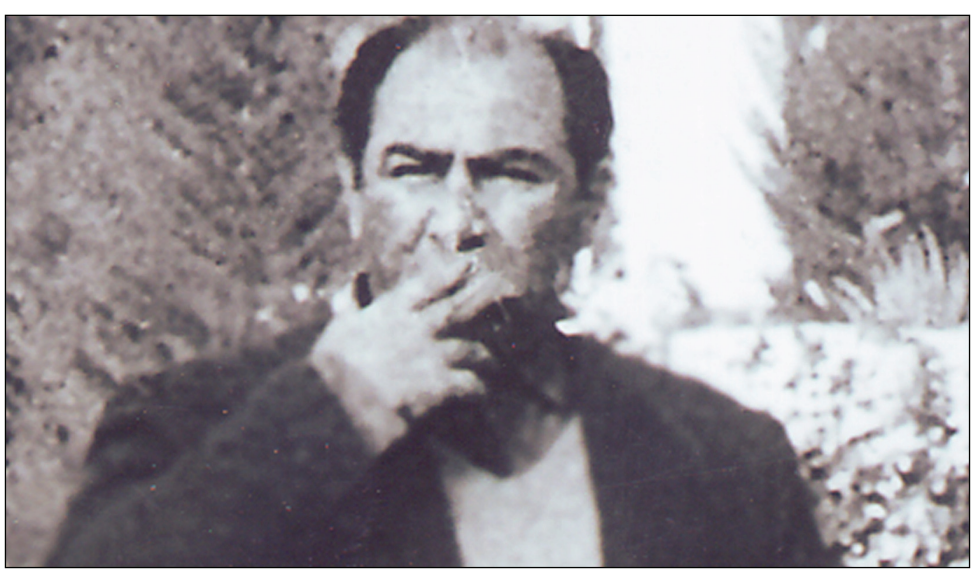

العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

وثـــائـــق

اعداد وتقديم حاتم الصكر

هذه الرسالة

لم يكن حسين مردان قد اتم الثلاثين من عمره حين نشر هذه الرسالة في الصفحة الثقافية لجريدة الاخبار التي كان يعمل محررا فيها.

والرسالة تشي بشعور الوحدة والالم والحزن الذي كان مسيطرا على حسين مردان وهو اذ يشكو الى صديقه الفنان شاكر حسن آل سعيد تلك المشاعر، فانه لايحمله وزرها قدر استخدامه لحق الصداقة وطقوس المشاركة الانفعالية.

وشعوره بالم الوحدة شعور ثقافي اكثر منه شعورا حياتيا.

اي ان معاناة الوحدة واحاسيس الاغتراب تحصل عند حسين مردان جراء اصطدام حلمه الثقافي برتابة الحياة وجمود الواقع.

وحسين مردان يمثل في هذه الرسالة نموذج المثقف الخمسيني المعترض على الواقع بدون رغبة في مجافاته تماما.وتلك كانت ابرز سمات الواقعية كما فهمها الكتاب والشعراء العراقيون آنذاك.فالشاعر (يرفض) الصداقة العادية ويحلم بتحطيم كل شيء لكنه في الوقت نفسه مشدود الى المجتمع بشعور غريب بالمسؤولية التي لايعني التملص منها الاّ (البوار) لان الابتعاد عن الناس موت هنا –كما يقول حسين مردان – موطن اللعنة في مشكلة الفنان المعاصر.

وهذا المأزق –الاقتراب من الناس ورفض الواقع– يفرض صراعا عنيفا داخل الذات اولا، ومع الخارج ثانيا.

وذلك واضح في توتر لغة الرسالة، وحدتها وميل حسين مردان الى تجسيم افكاره بصورة بليغة لاتقل حماسة وهياجا عن اللغة التقريرية التي كتب بها الرسالة.

والشاعر يدرك ذلك فيعتذر من صديقه معللا ذلك بضغط الخارج على اعصابه، وبالوحدة التي يحياها والتي شبهها بوحدة حيوانات القطب.

يريد حسين مردان من صديقه الرسام شاكر حسن آل سعيد ان يفتش في الزوايا والاّ يكتفي بسطح الحياة في باريس. انه لايريد لصديقه ان يتعلم بما يملي عليه فحسب، فالعلم عنده هو ما استقر في ضجيج الحياة وصخبها كما ان حسين مردان يرينا في رسالته مفهومه للصلة بالغرب فهو يريد ان يعود صديقه وقد (تجدد دمه) وفهم ما وراء الحياة الظاهرية فحسين يؤمن بان الحياة هي المدرسة الاولى والاخيرة وتلك خلاصة تجربته الشخصية اما الانصراف الى العلم المجرد دون اختبار صدقيته في الحياة فامر لايؤمن به حسين لذا فالدراسة عنده لاتكفي وحدها حتى لو كانت في باريس عاصمة الفن.. فهناك دوي الحياة في الخارج ولابد للشاعر والفنان من اذنين مرهفتين حادتي السمع ليقف على مايمور في احشاء الحياة.وهذا جانب آخر من جوانب الفهم الخمسيني للواقعية.

–فهي ارتباط مسؤولية لابد منها، بالناس والمجتمع.

–وهي ارتباط عيش وتجربة حقيقية لاتغني عنها القراءة او العلم.

تعكس الرسالة الى جانب ذلك اسلوب حسين مردان الذي يبالغ في تصوير الفكرة ويستعين من اجل توصيلها وتوضيحها، بصور بليغة تميزه عن سواه وتدل على شخصيته.

وهذا واضح في (التعليق) الملحق بالرسالة.. لقد حسب حسين مردان ان هذه الرسالة (ستذهب الى النسيان كما يذهب اي شيء آخر في هذا العالم).. ولكن افكارها اثارت نقاشا كثيرا عند نشرها، وها هي بين ايدينا بعد اكثر من ثلاثين عاما ما يصلح للنقاش ايضا..

رسالة من شاعر الى رسام

اخي الرسام شاكر حسن:

لقد وصلتني رسالتك الاولى فسررت بها كثيرا وتناولت القلم اكثر من مرة وكتبت عدة سطور ثم نسيت الامر دفعة واحدة. نسيتك ونسيت ان في العالم مدينة اسمها (باريس) بل ونسيت حتى نفسي.. وجاءت رسالتك الثانية ففرحت بها ايضا واثارتني للكتابة، ولكن هيهات،، ان الايام تمر وانا جامد متصلب كحجر الطاحون ولنفرض اني انجزت كتابة الرسالة ولكن من الذي سيحملها الى البريد!!. وهل هناك قوة تستطيع ان تدفعني الى ان اقوم بمثل هذا العمل الجبار، شراء الطوابع ولصقها على الظرف ودفع الفلوس ايضا،، الا ترى ان القيام بمثل هذه العملية تكاد تكون من الخوارق بالنسبة لي.

بصراحة لقد اصبحت اكره حتى الصداقة فانا لا اريد ان اتعب نفسي مطلقا لقد اغلقت الباب وعيني مملوءة بالرمل فلا اوّد ان ارى غير وجهي ماذا تريد مني؟ اني رجل قاحل كالعدم، ومع ذلك فها انا اكتب اليك هذه الرسالة والتي اعتقد انها لن تصلك قط وستذهب الى النسيان كما يذهب شيء آخر في هذا العالم.. تقول انني اهملتك، انه لو تعلم ياشاكر.. ان الموتى هنا لايفهمون ولو انهم يحركون اذرعهم كالقردة، لقد ضربوا على آذانهم فلا ينبعث من حناجرهم غير النشيج.. وانا الوب في الوحدة والالم يلوي شفتي لاني لم اجد الانسان الذي يقبل ان ارفعه الى قلبي، ان زفرة واحدة نطلقها في لحظة ضيق كفيلة بابعاد جميع الاصدقاء من حولنا، لانهم هم انفسهم يمتلئون بالزفرات ساعة بعد اخرى، ولهذا فضّلت العودة الى الاشباح فرجعت الى السكر، ولكن حتى هذا السم الابيض لم يعد يؤثر في احزاني، ان الخمر قد يخدر عقلي ولكن اين اجد الشراب الذي يخدر القلب!!.

لقد كنت تدرك لغة الجنون وتفهم معنى الظمأ الذي تشكو منه الصحارى وبسفرك لم يبق لي غير الانفراد، ولعلك تعرف اي رعب اسود في هذه الكلمة الجهنمية، وانا ادور الان في بيت العنكبوت وكل ما افعله هو ان اقضم اظافري بصمت .. آه لو استطيع ان افسر الطلاسم التي ترتسم على شفتي الان!. لا شك انك قد قرأت شيئا عن حيوانات القطب، تلك الحيوانات المتوحدة التي تحيا في عزلتها الموحشة بين جدران الجليد هكذا اعيش اليوم، ولكن حتى مركز القطب المخيف لاينجو من الرواد وقد حدث لي ذلك ايضا فقد اقتحمت دائرتي المتجمدة امرأة صغيرة واستقرت في احشائي كالنبلة ولقد حاولت اقتلاعها فلم استطع لقد حدث لي ما يحدث للاسد عندما تنبت في رقبته انياب (النيص) فعبثا ينفض جسمه، اني اشعر لاول مرة في حياتي بالاندحار، فيا لنا من مساكين نعمل زمنا طويلا في اعتصار لحمنا وبري عظامنا لنجعل من انفسنا عمالقة ثم تأتي امرأة صغيرة لم تصبغ اظافرها بعد وما زال الحليب يفوح من ثغرها فتجبرها على الانحناء! ماهذا الضعف؟.. ان مجرد التفكير بهذا الشيء يجرح عظمتي والان لنترك الحديث عن الحب ففيه حلاوة لاتبلى كحلاوة الاساطير ولنلتفت نحوك قليلا..

انت الان في باريس ليكن ولكن ماذا تعمل هناك؟ هل تجتر دروسك كالبقرة ثق ان المدرسة وحدها لاتعطي شيئا فعليك ان تندفع الى الشوارع وتكتشف حياة الزوايا، عليك ان تلصق اذنك بالارض ليمتلئ رأسك بالدوي،، اني انذرك فاذا عدت الى بغداد ولم اجد تحت صلعتك شيئا جديدا فسوف اسحق جمجمتك واضغط على اوداجك حتى ازهق روحك اللعينة،، ساضعك على طاولة التشريح فاذا رأيت دمك القديم على حالة فسأرمي بك في اول بالوعة في الطريق،، ربما كنت قاسيا فسامحني فانا هنا لا ارى حولي غير رؤوس الضفادع فانا دائما في حالة غريبة من التوتر وفي اكثر الاحيان افقد السيطرة على اعصابي فاتمنى ان اسحق بين اصابعي الجبال ليهدأ زئير الفحولة في اعماقي..

انك تعرف (بزاروف) بطل (ترجنيف) اني احس به يتحرك في دمائي فتسيطر علي رغبة طاغية في ان

يريد حسين مردان من صديقه الرسام شاكر حسن آل سعيد ان يفتش في الزوايا والاّ يكتفي بسطح الحياة في باريس. انه لايريد لصديقه ان يتعلم بما يملي عليه فحسب، فالعلم عنده هو ما استقر في ضجيج الحياة وصخبها كما ان حسين مردان يرينا في رسالته مفهومه للصلة بالغرب فهو يريد ان يعود صديقه وقد (تجدد دمه) وفهم ما وراء الحياة الظاهرية فحسين يؤمن بان الحياة هي المدرسة الاولى والاخيرة وتلك خلاصة تجربته الشخصية.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1629)
السنة السابعة
الخميس (15)
تشرين الاول 2009

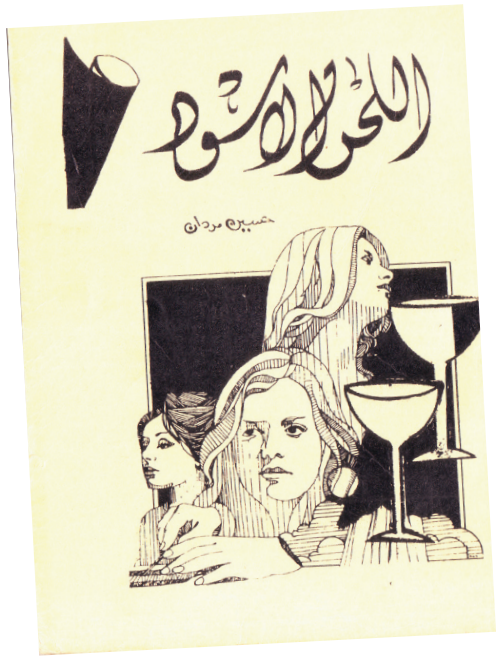

احطم كل شيء.. ظني مازلت اشعر بمسؤوليتي تجاه المجتمع، هذه المسؤولية الفظيعة التي لايمكننا ان نتملص منها الاّ اذا اردنا ان نحكم على انفسنا بالبوار، لذلك فنحن لا نستطيع ان نبتعد عن الناس لان في ابتعادنا عنهم موتنا، وهنا موطن اللعنة في مشكلة الفنان المعاصر فهو لايستطيع ان يعبر عن ذاته الاّ عن طريق الاخرين ولا شك ان التمرد على هذا المفهوم هو نوع من الهروب – واذا شئت- بتعبير اعمق فهو تكلس الفنان اجتماعيا، اي انه لايستطيع ان يتفاعل مع العالم الخارجي وفي ذلك موته.. ولهذا فانا ابذل المستحيل لوضع قدرتي الفنية في خدمة الشعب،، واذا كنت اخرج احيانا على القاعدة فلأني مازلت اخضع لما يسمى – بالأنا- واعتقد اننا سنبقى مشدودين الى هذه الكلمة مدة طويلة..

ان الغثيان يأخذني فلا استطيع الكتابة اكثر من هذا.. اني اعرف كل ما تنبض به حجيراتك فلا تكتب لي في المستقبل عن نفسك اكتب لي عن الحركة الادبية والفنية في باريس وعن كل ما يتعلق بهذه الاجواء كما ارجو ان ترسل لي صور بعض اللوحات المشهورة ومن يدري فقد نلتقي هناك في الصيف القادم.

حسين مردان

تعليق

بقلم/ حسين مردان

اني احترم صديقي شاكر حسن ولا اقول احبه لان العالم كله قد اصبح يشك بقدسية هذه الكلمة ولو انها الكلمة الوحيدة التي سيفتح بواسطتها انسان المستقبل باب الفردوس..

وفي رسالتي الى شاكر حاولت ان اصور القحط النفسي الذي يعتصرنا- هنا- في مدينة الشحاذين- المدينة التي لاتتسع لموطئ قدمي.. وسنظل نتسكع في الفراغ ونصبغ اسناننا بلون التبغ في انتظار طلوع الهلال وفي صميم هذا الانتظار المفزع ابدا نغني ونحن ندور حول –شجرة الزقوم- مادامت المرارة في حلوقنا فليس بمقدورنا التغزل بالعسل.

ولكن بعض الناس – اقصد الاغبياء منهم- لايريدون ان نكشف لهم انياب الغول لانهم تعودوا على صداقته.. وانا لا اكتب ادبي لهذه الفئة من البلهاء وانما اكتب للذين يبحثون عن المعنى الدفين وراء سور الكلمات واذا كان اسلوبي يبدو قاسيا وحادا كالسكين فلأني اؤمن بأن السرطان يجب ان يقتلع اقتلاعا فسكيني لاتقلم الاغصان العفنة في مزرعة الفساد فقط وانما تغوص عميقا في التراب لقطع الجذور..

ان القراء العاديين هم وحدهم يحبون الادباء الذين تتجلى بطولتهم في بتر اذرع الاخطبوط اما انا فاني امسك بالصلعة لاهشم الرأس اني ارتدي جلد (ايوب) فالسهام التي تسدد نحوي لاتجد في جسدي موضعا بلا حرج وكالمسيح اقدم خدي ليصفعه الناس وعلى شفتي دائما ابتسامة الشهيد..

ان الشيء الوحيد الذي احزنني في رسالتي الى شاكر هي انها كانت السبب في اختفاء (الجثة) من امام عيني ولكنها ستعود لانني واثق من عطفها عليّ ولانها تعلم جيدا بحاجتي الى هذا العطف وبلا كبرياء انني انحني امام تلك الصغيرة للمرة الثانية..

ان القراء العاديين هم وحدهم يحبون الادباء الذين تتجلى بطولتهم في بتر اذرع الاخطبوط اما انا فاني امسك بالصلعة لاهشم الرأس اني ارتدي جلد (ايوب) فالسهام التي تسدد نحوي لاتجد في جسدي موضعا بلا حرج وكالمسيح اقدم خدي ليصفعه الناس وعلى شفتي دائما ابتسامة الشهيد..

سأظل عبد عواطفي ولذائذي ما دمت في كنف الشباب الزاهر فاذا انقضى زمن الشباب ولم تعد ذكراه الا كالخيال .. العابر ودخلت في ليل الكهولة وانقضت ايام لهوي في الزمان الغابر وبدت لي الدنيا سعيراً مظلما ما بين اشباح الفناء الساحر وقبرت بين جوانحي قلبا به عبثت اعاصير الشتاء الجائر واطلقت روحي في سجون عذابها تشدو باغنية الجحيم الساعر.

حسين مردان والشباب

محمد مبارك

بهذه الكلمات المباشرة التي لم يشأ الشاعر ان يبذل جهدا في انتقائها وتزويقها وصياغتها يصور حسين مردان وموقفه من الشباب.. وقد كان صادقا فيما صور وان وجدناه يدخل ليل الكهولة قبل ليلها .. وكان بروح من الشباب ولم تضعف فتوة .. اذ الشباب لدى ابي علي حياة لانهاية لتقبلها واضطرابها في الحال او الانفعال وعالم لاحدود له من الحركة والتلوين والفعل..

ومعان لا يحصرها قلم او يحيط بها قول وانما لك ان تتحدث و تتحدث عن الشباب في هذه الروح المعذبة والشاردة .. وتلك الانفعالات المتقلبة العاصفة وذلك النزق النبيل والتهتك الفاضل والعنف المسالم .. وذلك الوفاء والشرف وفناء الفكر وعنفوان الايمان بالانسان والتثبيت المحموم بالحياة وفي تلك المشاعر المتضاربة من اليأس والأمل والقنوط والاصرار والاذعان والمكابرة والانسحاب والتحدي والاسفاف ونوازع الفروسية المجيدة .. انه النبل الذي لم يشا ان يكون حكاية طين فطفق يرجم الارض بما يفري بجلها .. وينهك عرضها ويهزأ من قيمها ومعاييرها وما خلقت من محرمات ونصبت من تابوتات..

وبعد فهل وفيت حديثا او بلغت ليس لاحد عرف ابا علي عاش معه فترة ان يزعم ذلك فللشباب عنده هما الحياة من قوى مجنونة وصور متوحشة واوضاع وحالات لن يبلغها خيال فيحيط بها .. او ينوشها ذهن فيصادر عليها .. والان هل ثمة شيء اخر .. اجل .. ان الشباب عند حسين مردان جانب انساني اخر يقوم بهذا التوجه الحاني نحو الشباب مشاكسة لهم وغيرة منهم تعصبا اليهم وتبنيا لقضاياهم ودفاعا مجيدا عنهم وحرسا مخبولا عنهم على ان يكون واحدا منهم في عبثهم ونزواتهم ومغامراتهم ومخاوفهم .. والسنة الجحيم ستعصف بهم في داخل هذا الفارس عصفا يختل له كل التوازن فلا يقوى على شيء ازاءه الا الصمت المثقل بالحزن الذي لاحد له والالم الذي يكاد تتقراه نتا عنيفا في تضاريس وجهه المتعب ونضرات عينيه الكابيتين ..

ان الشباب عند حسين مردان جانبا انسانيا اخر يقوم بهذا التوجه الحاني نحو الشباب مشاكسة لهم وغيرة منهم تعصب اليهم وتبني لقضاياهم ودفاعا مجيدا عنهم وحرسا مخبولا عنهم على ان يكون واحدا منهم في عبثهم ونزواتهم ومغامراتهم ومخاوفهم ..

وبعد فهل لي ان اجتزئ عينات من مواقفه حيال الشباب في احدى اماسي اتحاد الادباء في شتاء .. عام ١٩٦٢ وقف شاب صبي في حدود السابعة عشرة من العمر ليقرأ علينا شعر يقول فيه : ان في داخل كل منا اوديبا اعمى كان هذا الشاب الصبي هو رياض قاسم وكان ابو علي حاضرا شانه في كل امسية اربعاء فما ان انتهى الشاب من قراءة قصيدته حتى وقف ابو علي واقبل على الشاب الصبي حانيا كاب مشجعا وناصحا موجها متخذا منه صديقا كفؤاً ورفيقا يجتمع معه في صعيد واحد حتى وان كان ثلاثين عاما تمت بينهم الصحبة وزمالة ورفقة دربه الشاق .. وقد اتصلت بهم هذه الصحبة حتى غادر ابو علي الى غير رجعة ويوم جاء الى الاذاعة بعد ثورة تموز ١٩٦٨ كان انتماءه له حقيقيا وحبه الى العمل فيها نقيا صافيا ومن ثم كان جاهدا فيها لا يسأل اجرا ولا ثوابا ونشاطه الدؤوب لاينتظر غير كلمة شكرا وبعد سنة او بعض سنة من وجوده في الاذاعة التقى برفيق عمره ومن شبه له انه التقاهما في صباه ثم غابا ليعودا ويلتقيا نه شبابا غضا في كهولته المبكرة انهما حميد الخاقاني واحمد خلف اللذان لم يتركهما او يتركاه لحظة عين على الرغم من شجاه المتصل معهما واختلافهما معه في الكثير . وظلا مع ابي علي على هذا النحو من الصحبة والشجار حتى واریاه التراب وكانا اصدق من بكائه واكثر الناس إحساسا بفقده اذ كان لهما اكثر من رفيق .. اما حكايته مع الشاعر فوزي كريم فهي تدخل في باب التقاء الارواح منها في معرفة شاعر بشاعر .. فلقد وجد في فوزي ما كان يطمح إليه فوجد فوزي فيه الانموذج الذي كان يبحث عنه فلا يجده .. ان الحياة والتجربة والموقف الذي يعشقه على الرغم من اقتناع فوزي في تجاوزه عطاءا وشعرا .. ومن ثم كان رثاء فوزي لحسين مردان رثاء له ايضا اذ كانت فجيعته به لاتعد له الاخر .. فلقد فقد بفقده قريبا لايقوى على الالتصاق من دونه والاحساس الفاجع بعبثية الحياة ولاجدواها يتجسدان في ابي علي لدى فوزي بالشكل الذي يريد ان يكون هو رجل الشعر والثقافة والادب والمسؤولية لاختيار الشجاعة .. اما التقاؤه بحميد سعيد في صعيد اخر في تكافؤ والحب والاحترام الذي لم يقو على نفيه اختلاف الأنموذجين وليس هذا فقط من امر الشباب مع حسين مردان وانما كان ابو علي باستمرار مع كل حركة او تجمع يضم احلامهم في يوم كان تجمع المرفأ في اتحاد الادباء يستقبل زواياه المنعزلة من بناية الاتحاد في الستينيات .. كان حسين مردان صوت هذا المرفا في الهيئة الادارية للاتحاد ومنظره الايدلوجي على الصفحات الادبية وفي اخر ايامه كم كان حسين مردان منطوياً على نفسه عندما كانت تعقد الهيئة الادارية اجتماعا للادباء الذي كان هو عضوا مؤسسا في عهديه وعضو دائم في الهيئة الادارية ويعمل كالمكوك في احدى زوايا الاتحاد وبينما اجتماع الهيئة وما كان ان تمضي عليه عشر دقائق حتى اشفعها باخرى مع الشباب ليعود بعدها الى الاجتماع وهكذا حتى يرفض فيأتي تجمع الشباب وقد أزاح عن كاهله عبئا ليتنفس الصعداء بينهم مما ارهق عصبا وضيق صدراً.

مجلة الف باء- تشرين الاول ١٩٧٣

ذكرى رحيل حسين مردان

المحرر

ولد حسين مردان في ١٩٢٧ ولا يتذكر من طفولته في طويريج والحلة شيئاً ولكنه يتذكر ما كان منها في الخالص حيث استقرت عائلته. لم يكن ايام دراسته في المدرسة تلميذا موفقاً اذ لم يكمل المتوسطة منها، لكنه كان قارئاً نهماً خارج الدرس. يقول في احدى مقالاته»في السابعة قرأت عنترة، وفي العاشرة نظمت اول بيت، وبدأت امي تضايقني بأن لابد من الانقطاع عن الادب! وهكذا تركت المدرسة ثم بدأ الخصام مع العائلة! واضطررت الى هجر البيت». وهكذا بدأ يتلمس حياة التشرد في ازقة الخالص الضيقة وحين تضيق به يدفعه طموحه للهجرة الى بغداد عام ١٩٤٧ ليألف حياة تشرد بمعنى الكلمة ويجد نفسه في مواجهة عالم آخر ليس كالخالص، انها بغداد المدينة الغامضة والمغلفة.. وبعد يومين من وصوله بغداد يدخل الفراغ الى جيبه وينخرط في مسطر سوق الفضل عاملاً للبناء.

بعدها يلتقي كامل الجادرجي»القائد الوطني» ويعرض عليه العمل في جريدة الاهالي مصححاً لغوياً وعد ذلك فوزاً كبيرا ويلج حياة بغداد كما المستكشف يريد ان ينهل من عالمها ما راود مخيلته وهو ما زال يحبو في بدايات تشرده في الخالص. يدخلها مفتتحا تشرداً من نوع آخر، فان الكتب لا تكفي... الحياة ... الليل.. واي ليل هوليل بغداد بكل ما فيه من خمر وغوانٍ وحشيش وصحبة شعراء حالمين. يهدف للكشف ورؤية الجذور ويغوص في عالم المدينة المتنوع والمتناقض في الوقت نفسه، ويجد في (واق واق) المقهى ما يسهل عليه عملية الاكتشاف والغوص هذه.

وهناك يتلمس طريقه للوسط الثقافي: شعراء ... فنانين.. يساريين ومدمنين وجره ذلك الى صحبة متشرد من نوع آخر فقير سليل عائلة ارستقراطية هو بلند الحيدري وغيره ويبدأ التجوال والتنقيب في مكتبات بغداد، وحين صدرت مجلة (الكاتب المصري) وما فيها عن الوجودية هام بها وتبناها وعد نفسه وجوديا على طريقته. ثم لما نشرت ترجمة ديوان بودلير»ازهار البشر» وجد ضالته فيه وعد نفسه بودليرياً.

وحين تتسع دائرة معرفته بالوسط الثقافي يبدأ بالتنقل بين مقاهي بغداد الادبية»من عجمي، الزهاوي، كافيه سويس، البرازيلية، واق واق، وفي معهد الفنون الجميلة ويلتقي النخبة (الرصافي، الجواهري، بحر العلوم، بدر شاكر السياب، عبد الوهاب البياتي) والقائمة تطول.

يصدر عام ١٩٤٩ ديوانه الاول (قصائد عارية) وها هو يدخل عالم الشعر بجرأة هي اقرب للوقاحة ويتمادى في جرأته ويهدي ديوانه الى نفسه ويوصمه بهذا الاهداء الذي لا يقل جرأة عن اصراره واطمئنانه الى شاعريته يقول»لم احب شيئاً مثلما احببت نفسي، فالى المارد الجبار الملتف بثياب الضباب، الى الشاعر الثائر والمفكر الحر... الى.. حسين مردان.) وصودر الديوان حال صدوره واحيل صاحبه للمحاكمة وتبرئة المحكمة بعد ان انتدبت لجنة من الادباء لقراءته والحكم عليه وكأنها بذلك تعلن ولاءها للابداع وتقف الى جانب الشاعر. في ١٩٥٠ اصدر قصيدته العمودية»اللحن الاسود» في كراس خاص ولم يكن للسلطة بد من مصادرة القصيدة وتقديم صاحبها للمحاكمة لكنه نجا هذه المرة ايضا هو وقصيدته كما في سابقتها. يصدر في ١٩٥٠ قصيدته الثانية (رجل الضباب) ايضا في كراس مثل سابقتها التي اعاد نشرها في نهاية ديوان اغصان الحديد الذي اصدره ١٩٦١ يدافع فيها عن وطنيته وهو الشاعر الثائر المتفجر ألماً لما يسود بلده من ظلم الحاكم:

هذا انا (رجل الضباب)
ومن له في كل موبقة حديث يذكر
فليعلم المتزلفون اذا التوت
قدم على قدم بأني اكبر...

يعود في ١٩٥١ فيصدر كتابه (صور مرعبة) من النثر المركز – هكذا اسماه ويستمر في النظم على هذا النمط فيلحقه بثان في ١٩٥٢ (عزيزتي فلانة).

وبعد انتفاضة تشرين ١٩٥٢ تسوقه اهتماماته الوطنية الى المعتقل ويحكم عليه «بكفالة» على ان لا ينشر كتابا لمدة سنة واحدة، ولعجزه عن دفع مبلغ الكفالة المطلوبة يودع السجن.. سجن الكوت لمدة سنة اوائل ١٩٥٣ زادته هذه السنة اصراراً على التمسك بقضايا الناس والسير في خدمة شعبه وغذت اصراره هذا ثقافة عرفها من زملاء سجنه.

عاد بعد خروجه من السجن للعمل بالصحافة في جريدة»صوت الاهالي» واصدر في العام نفسه ١٩٥٣ كتابه (الربيع والجوع) على نمط»صور مرعبة» في نثره المركز.

ويصدر في ١٩٥٥ »نشيد الانشاد» من النثر المركز ايضا مستوحيا موضوعه من»نشيد الانشاد للملك سليمان»

وفي العام نفسه ١٩٥٥ يصدر كتابه»مقالات في النقد الادبي» وديوانه «العالم تنور» من النثر المركز. ويلحقهما في ١٩٥٦ بإصدار كتابه»رسالة من شاعر الى رسام» الشاعر حسين مردان والرسام شاكر حسن ال سعيد. ويصدر في العام ١٩٥٨ ديوانا سماه (الارجوحة هادئة الحبال) قام برسم لوحات الديوان كل من الفنانين جواد سليم وشاكر حسن ال سعيد وخالد الرحال وصورة غلاف الديوان لشاكر حسن ال سعيد دعا في مقدمة كتبها له تحطيم القافية والوزن وله في ذلك سابقة ممثلة بما سماه النثر المركز، يقول في مقدمة ديوانه هذا»ان الوزن لا يشل الخيال ويثقل ريش اجنحته ويعطلها عن الرفيف بحرية ويمنع تدفق القريحة فيقطع انهمار الشلال العاطفي فحسب، بل هو يغلق بوجه الشاعر النوافذ السحرية –المطلة على عالمه الداخلي.

ويصدر في ١٩٥٩ كتابه (هلاهل نحو الشحن) هو للنثر اقرب منه للشعر. وها هو ذا يصدر عام ١٩٦٠ ديواناً من الشعر الحر اسماه»اغصان الحديد». وفي الستينيات وتحديداً في ١٩٦٧، يصدر له في بيروت ديوانه (طراز خاص). وعندما وجد حسين مردان ان نماذج برجوازية اخذت تتسرب الى شعره وتكاد تخنقه ترك نظم الشعر واعلن ذلك بكل جرأته. في ١٩٦٩ كان احد اعضاء الهيئة المؤسسة لاتحاد الادباء في العراق ثم عضوا فيه وحين ارادت الدولة استمالة الادباء والكتاب اليساريين الى جانبها وان تدخلهم في بيت طاعتها شرع منذ شباط ١٩٦٩ يكتب في مجلة الف باء الاسبوعية بعد ان اتفق مع رئاسة تحريرها على ذلك وبدأ بكتابة المقالة الاسبوعية والشعر اذا تعذرت المقالة فكان موضوعه متنوعاً وفيه من الابداع والمتعة الشيء الكثير فهو بين الجد والرأي وتلخيص قراءات وفيها كلها تجد حسين مردان الشاعر والموقف كما عهدناه شاخصاً ويستمر بالكتابة للمجلة وبشكل منتظم تقريباً لحين وفاته عام ١٩٧٢.

عراقيون

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

التحرير : علي حسين

التصميم : نصير سليم

الاشراف اللغوي : يونس الخطيب